Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

د. عبد السلام التونجي

الإيمان باليوم الآخر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الإيمان

باليوم الآخر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الطبعة الثانية

1426 ميلادية

جميع حقوق النشر والاقتباس محفوظة
لجمعية الدعوة الإسلامية العالمية

الإيداع بدار الكتب الوطنية
بنغازي رقم: 1990/808 افرنجي
الجماهيرية العظمى

مَنشورَات

اهداءات ٢٠٠٢

أ/ محمد مصطفى بيومى
القاهرة

هاتف رقم 4800730 - 4800294 - بريد مصور 4800293 - ص.ب. 2662
طرابلس - الجماهيرية العظمى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

د. عبد السلام التونجي

الايمان باليوم الآخر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

«صدق الله العظيم»

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتاباً في يومه إلا قال في غده لو غير هذا لكان أحسن ولو زيد كذا لكان يستحسن، ولو قدم هذا لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان أجمل وهذا من أعظم العبر، وهو دليل استيلاء النقص على جملة البشر.

«العماد الأصفهاني»

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تمهيد:

إن الإيمان بالقرآن كتاب الله المنزل على رسوله محمد ﷺ، يقتضينا تبعاً لمقتضيات العقل أن نؤمن بكل ما جاء فيه فنؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله واليوم الآخر وبالقضاء خيره وشره. فالقرآن الكريم على هذا الأساس هو مصدر العقيدة كما أن العقل هو الرائد والمرشد، به نميز بين الهداية والضلال، وعن طريقه يعقل المرء بوازع من دينه وإيمانه كل ما لا يرضاه الشرع أو يأباه له التكليف، كل ذلك نتيجة للتدبر والتفكر فيما أمر به الله وينهى عنه سواء كان الأمر يتعلق بأمور حسية أو أمور غيبية، إذ المرء لوحده دون إرشاد أو تعليم ودعوة إلى الهدى أو الخير لا يملك لنفسه العلم كما لا يملك لنفسه نفعاً أو ضراً إلا بمشيئة الله، ولو كان الإنسان يعلم الغيب لاستكثر من الخير، والله سبحانه وتعالى قد أرشدنا إلى ذلك، فقال على لسان نبيه ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[1].

وإذا كان الإنسان لا يعلم الغيب ولا يمكنه أن يطلع عليه، فمن البديهي أن يؤمن بما أمر الله به من تكاليف، وأن يتعلم بما يحقق واجب التكليف فلا يهمله أو يعطله، أو يلغيه، لا سيما وقد تفضل الله على عباده

(1) سورة الأعراف، الآية: 188.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بأن أنزل لهم القرآن وجعله هدى للناس يلتمسون فيه أمورهم في دنياهم وآخرتهم وقد حوى كل شيء قال تعالى:

﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

هذا وإذا كان الإنسان في عقيدة القرآن هو خليفة الله سبحانه وتعالى، فإن من مقتضيات هذه العقيدة العمل بموجبها، باعتبار أن الإنسان لم يخلق عبثاً بل خلق للعلم والعمل والابتلاء والعبادة، كل هذا في سبيل ما يحقق الخير في الحياة، ويضمن السعادة في الدنيا والآخرة، فالحياة الدنيا إذن دار امتحان يقيم فيها المرء تبعاً لأعماله من خير أو شر، كما يحاسب عليها في الآخرة.

قال تعالى:

﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[3].

قال تعالى:

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[4].

قال تعالى:

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[5].

فالإنسان والإنسانية جمعاً، بمقتضى الإيمان بالعقل المسؤول، هي

---

(1) سورة الأنعام، الآية: 38.

(2) سورة الإسراء، الآية: 9.

(3) سورة الأنبياء، الآية: 35.

(4) سورة الملك، الآية: 2.

(5) سورة الكهف، الآية: 7.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أسرة واحدة منسوبة لأدم وحواء، خلقهم الله ورفع بعضهم على بعض درجات تبعاً لأعمالهم فأفضل الناس عند الله من عمل حسناً وأتقى سيئاً، وصدق النية فيما عاهد الله عليه، وعلم أنه مسؤول عن عمله يحاسب عليه ويؤاخذ بوزره، فلا يسأل الإنسان عن عمل غيره.

قال تعالى:

﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[2].

وعلى هذا فلا تؤاخذ نفس بوزر أحد كما لا تؤاخذ أمة بوزر غيرها.

قال تعالى:

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[3].

فعقيدة القرآن إذن كما أنها عقيدة الإيمان بشموله، تبعاً لما أمر به الله سبحانه وتعالى، فهي في الوقت ذاته عقيدة رشد وهداية ومساءلة، فكل مخلوق بلغته الرسالة مسؤول، قال تعالى:

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[4].

وقال تعالى:

﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾[5].

على أن هذه المساءلة لا تتحقق إلا بأركان وجب توافرها، وهذه

---

(1) سورة الطور، الآية: 21.

(2) سورة الأنعام، الآية: 164.

(3) سورة البقرة، الآية: 134.

(4) سورة الحجر، الآية: 92 ـ 93.

(5) سورة الأعراف، الآية: 6.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأركان تبعاً للتشريع الإلهي المنزل: تبليغ، وعلم، وعمل.

أما عن التبليغ فالمراد به وصول الدعوة إلى الناس وعلمهم بها، والدعوة المقصودة هنا هي الدعوة إلى دين الله الحنيف بما يقتضيه من الإيمان، من عقيدة ومعاملات وعبادات تبعاً لما أمر به الله سبحانه وتعالى، أو نهى عنه.

﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾[1].

كل هذا لتستقيم حياة الناس ويتحقق لهم الخير في دنياهم وآخرتهم.

قال تعالى:

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[2].

وقوله تعالى:

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[3].

وعلى هذا فلا تحق التبعة على أي إنسان ما لم تبلغه الدعوة في قضايا الإيمان الشامل بالمحسوسات، وبقضايا الغيب التي يعجز العقل لوحده عن إدراكها.

أما العلم فقد خص الله به آدم عليه السلام قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾[4].

وإذا كان العلم أساس المعرفة فقد أعلن الله مبدأ أساسياً لتعليم الناس والتزود به باعتبار أن الإنسان مميز عن سائر المخلوقات بقابليته للعلم تعلماً

---

(1) سورة النساء، الآية: 165.

(2) سورة الإسراء، الآية: 15.

(3) سورة يونس، الآية: 47.

(4) سورة البقرة، الآية: 31 ـ 32.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتعليماً، وهذا ما أشار الله سبحانه وتعالى إليه واعتبره طريق الدعوة التي تقتضي العلم والإيمان بالعقيدة، وبأحكام الشريعة الإسلامية، ولهذا كان العلم من أشرف المراتب التي حث الله سبحانه وتعالى رسوله عليها، فقال تعالى:

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ * ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ * ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ * عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[1].

وهذه إشارة إلى أن الله سبحانه وتعالى أمر نبيه بالقراءة أولاً لنفسه وثانياً للتبليغ، أو الأول للتعلم من جبريل والثاني للتعليم[2] والمراد بالقراءة هنا قراءة القرآن.

أما العمل فهو فعالية الطاقة للإنسان بالجد والثبات والاستدامة فيما يحقق الخير على الوجه الذي رشد به الدين بمعنى أن يكون صالحاً، ويبتغى به وجه الله ويكون موافقاً للوضع الذي اعتد به الشارع في العبادات والمعاملات والحكم والقضاء[3]. فالعمل الصالح له أهميته ومرتبته العظمى وهو من نتائج الإيمان بالله واليوم الآخر ومقتضياته.

قال تعالى:

﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[4].

وقال تعالى:

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾[5].

---

(1) سورة العلق، الآية: 1 ـ 5.

(2) الإمام فخري الرازي ـ التفسير الكبير ج 3، ص 16.

(3) محمد الخضر حسين ـ أسرار التنزيل ص 108 ط 1976.

(4) سورة البقرة، الآية: 62.

(5) سورة البقرة، الآية: 25.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على أن هذا العمل مشروط بالتكليف في حدود طاقة الإنسان وقدرته قال تعالى:

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[1].

فالعمل المطلوب إذن إنما هو في حدود وسع الإنسان وقدرته، وهو العمل الصالح بما فيه خير الإنسان والإنسانية، لهذا فقد حدد الله الجزاء من جنس العمل بغية حض الناس على العمل الصالح فقال تعالى:

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾[2].

فعمل الإنسان إذن مراقب وبالتالي فهو محاسب عليه من قبل الله سبحانه وتعالى حيث ينبىء الناس بما كانوا يعملون.

قال تعالى:

﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[3].

هذا وعلم الله أزلي، يعلم غيب السموات والأرض، وهو خلق كل شيء وأحسن خلقه وبدأ الإنسان من طين ونفخ فيه الروح، فعلمه محيط بكل شيء، يعلم بما لم يكن بعد، كما يعلم ما وجد، فهو عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم، خص ذاته بهذا العلم ولم يظهره عليه أحد.

قال تعالى:

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾[4].

وقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾[5].

---

(1) سورة البقرة، الآية: 286.

(2) سورة الزلزلة، الآية: 7 ـ 8

(3) سورة التوبة، الآية: 105.

(4) سورة الجن، الآية: 26.

(5) سورة آل عمران، الآية: 179.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فعلم الغيب إذن من خواص الذات الآلهية والإيمان به مرتبط بالعقيدة إذ من مقتضى هذه العقيدة أن يؤمن الإنسان بالغيب وهو تكليف عقائدي تترتب على مخالفته المساءلة، هذه المسائل الغيبية وردتنا بالإخبار اليقيني، وهي وإن كان وجودها وحقيقتها يدخل في شمول علم الله، على أن الإيمان بها من أسس العقيدة التي أخبرنا بها القرآن الكريم. وهي إن كانت مما لا يستطيع العقل أن يتلمس لها وجوداً حسياً لأن من مقتضى الغيبيات وطبيعتها أنها لاتقع تحت الحس، كما أنها ليست من الموجودات المادية فالإيمان بها يكون عن طريق التسليم بما أخبرنا به الله سبحانه وتعالى سواء قام عليه دليل عقلي أم لا كالروح والملائكة، والجن والساعة، والحشر، والحساب، والميزان، والصراط، والجنة، والنار، إلى غير ذلك من الأمور الغيبية.

هذه الأمور وإن كان لا يتصورها العقل باعتبار أن الإنسان لم يمر عليها في الحياة الدنيا كما أنها لم تجرب على أي إنسان ومع ذلك يجب تصديقها بمقتضى العقيدة وفقاً لما أخبرنا الله بها في القرآن، وهذا الإخبار يقوم مقام الدليل العقلي اليقيني، لأن الإيمان والتصديق بالشيء لا يقتضي دائماً رؤيته والحس به، إذ الكثير من الأشياء في هذا الكون على الرغم من أننا لا نحس بها سمعاً أو بصراً مع ذلك موجودة، ولا ينفي وجودها عدم رؤيتها أو عدم سماع حركتها، ومع ذلك فالإنسان يؤمن بوجودها إذا كان واثقاً من صدق المخبر أو الناقل، وإن كان فاقداً لوسيلة المعرفة أو الرؤية. مثال ذلك الأعمى الذي لا يرى القمر ومع ذلك لا يمكنه أن ينكر وجوده طالما أنه أخبر بوجوده ممن يثق به، وكذلك بالنسبة للعوالم المجهرية كالجراثيم مثلاً، لا يمكن للإنسان إنكارها ولو لم يبصرها، طالما أن عالم الطبيعة أو الحياة يقر بوجودها من خلال رؤيته لها تحت المجهر، فما على الإنسان إذاً إلا أن يصدقه وإن لم يملك الوسيلة لرؤيتها، كما أن رواد الفضاء الذين ينقلون إلينا مشاهداتهم عن الفضاء والكواكب والأقمار لا نملك إلا أن نصدقهم، لأن أخبارهم يقينية. قائمة على المشاهدة الحسية. وعلى هذا نستطيع أن نقرر أن الأخبار النقلية الواردة في القرآن أو عن الرسل والأنبياء ليس لنا إلا أن نؤمن بصحتها ولو لم نشاهد الوقائع حسياً. طالما أننا نؤمن بوجود الله وخلقه لهذا الكون. فإذا آمنا به ويكتبه المنزلة من عنده، وبرسله

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وأنبيائه، فإنه بمقتضى هذا الإيمان يقتضينا العقل أن نؤمن حكماً بالغيبيات التي أخبرنا بها عن طريق القرآن، أو عن طريق الرسل.

قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾[1].

هذا والغيب بمفهومه هو ما يغيب عن الحاسة فمنه ما عليه دليل وهو ما يدخل فيه العلم بالله تعالى وبصفاته والعلم بالآخرة والعلم بالنبوة والعلم بالأحكام وبالشرائع[2] ومنه ما ليس عليه دليل ما، وتفرد بعلمه اللطيف الخبير سبحانه وتعالى كعلم القدر قال تعالى:

﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[3].

وقال تعالى:

﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ﴾[4].

وإذا كان الغيب قد تفرد الله سبحانه وتعالى بعلمه له، فإنه سواء قام عليه دليل أم لم يقم يقتضينا أن نؤمن به، ولهذا أشار الله سبحانه وتعالى إلى مرتبة المؤمنين بالغيب، فقال: ﴿الٓمٓ * ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ

(1) سورة النساء، الآية: 136.

(2) الرازي ـ التفسير الكبير ج 2، ص 27.

(3) سورة الأنعام، الآية: 59.

(4) سورة النمل، الآية: 65.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾[1].

قال تعالى في وصفهم:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[2].

فالمؤمنون بالغيب إذن يستوي عندهم الإيمان به سواء ما كان منه مشاهداً أم غير مشاهد ذلك أن الإيمان به ركن من أركان العقيدة وقد أثاب الله المؤمنين بالغيب فقال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾[3].

وإذا كان الإيمان بالغيب هو التصديق بقلب الإنسان ولسانه فإنه إذن إقرار باللسان ومعرفة بالقلب فالإيمان به يقتضي الاعتقاد بمضمونه على وجه الجزم واليقين، سواء كان هذا الاعتقاد تقليدياً أم كان علماً صادراً عن الدليل.

هذا الإيمان بالغيب إذن ما هو مضمونه ومحتوياته؟ وهذا ما سنحاول أن نميط اللثام عنه. مخصصين هذا المؤلف لبحث اليوم الآخر وما فيه من أحداث تدخل في شمول عالم الغيب.

---

(1) سورة البقرة، الآية: 1 ـ 3.

(2) سورة البقرة، الآية: 5.

(3) سورة الملك، الآية: 12.

(4) قول أبي حنيفة ـ الرازي المرجع السابق ج 2، ص 24.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الغيبيات

الباب الأول

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الأول

موقف الإنسان من الأمور الغيبية[1]

مما لا شك فيه أن إدراك الإنسان للأشياء أو المفاهيم قائم على قوى ذاتية متعه الله بها، وهي الحواس الخمس من بصر، وسمع، وشم، ولمس، وذوق؛ هذه القوى التي تطل على الساحة النفسية للإنسان وهي في الوقت ذاته صمامات الأمان لحياة الإنسان الذاتية في سلوكه بل هي من وسائل حمايته في فعالياته على اختلاف أنواعها من خير أو شر.

---

(1) غيب: الغيب مصدر غابت الشمس وغيرها إذا استترت عن العين يقال: غاب عني كذا قال تعالى: ﴿أم كان من الغائبين﴾. واستعمل في كل غائب عن الحاسة وعما يغيب عن علم الإنسان بمعنى الغائب، قال: ﴿وما من غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبين﴾، ويقال الشيء غيب وغائب باعتباره من الناس لا بالله تعالى فإنه لا يغيب عنه شيء كما ﴿لا يعزب عنه مثقال ذرة في السمٰوات ولا في الأرض﴾، وقوله: ﴿عالم الغيب والشهادة﴾ أي ما يغيب عنكم وما تشهدونه، والغيب في قوله: ﴿يؤمنون بالغيب﴾ ما لا يقع تحت الحواس ولا تقتضيه بداية العقول وإنما يعلم بخبر الأنبياء عليهم السلام ويدفعه يقع على الإنسان اسم الإلحاد، ومن قال الغيب هو القرآن، ومن قال هو القدر فإشارة منهم إلى بعض ما يقتضيه لفظه. وقال بعضهم معناه يؤمنون إذا غابوا عنكم ولبسوا كالمنافقين الذين قيل فيهم ﴿وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون﴾ وعلى هذا قوله: ﴿الذين يخشون ربهم بالغيب﴾ - ﴿ومن خشي الرحمٰن بالغيب﴾، ﴿ولله غيب السمٰوات والأرض﴾، ﴿أطلع الغيب﴾، ﴿فلا يظهر على غيبه أحد﴾، ﴿لا يعلم من في السمٰوات والأرض الغيب إلا الله﴾، ﴿وما كان الله ليطلعكم على الغيب﴾، ﴿إنك علام الغيوب﴾، ﴿إن ربي يقذف بالحق علام الغيوب﴾ واغابت المرأة غاب زوجها، وقوله في صفة النساء: ﴿حافظات للغيب بما حفظه الله﴾ أي لا يفعلن في غيبة الزوج ما يكرهه الزوج. والغيبة أن يذكر الإنسان غيره بما فيه من عيب من غير أن أحوج إلى ذكره قال تعالى: ﴿ولا يغتب بعضكم بعضاً﴾ والغيابة مُنْهَبَطٌ من الأرض ومنه الغابة للأجمة، قال: ﴿في غيابة الجب﴾، ويقال: هم يشهدون أحياناً ويتغايبون أحياناً وقوله: ﴿ويقذفون بالغيب من مكان بعيد﴾ أي حيث لا يدركونه ببصرهم وبصيرتهم. الراغب الأصفهاني - «المفردات في غريب القرآن» ص 366 - 367 دار المعرفة بيروت.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كما أنها هي التي تتحكم في فعالياته وانفعالاته على الساحة النفسية والمادية من رضى، وغضب، أو حب وكراهية، ولذة، وألم، وسير، وحركة، وسكون. كما أن هذه الحواس بطاقاتها هي التي تحقق للعقل إدراكاته إذا كان سليماً إذ به عن طريق إعماله بالتفكير يميز المرء بين الخبيث والطيب، وبين الحلال والحرام وبين الوجود والعدم، كما يميز بين الأمور الحسية والأمور الغيبية.

وإذا كانت الحواس على ما ذكرناه هي مبعث إدراكات العقل للأشياء المرئية أو الموجودات الحسية، فإن إدراك الأمور الغيبية لا يقوم على أساس الحواس المادية، باعتبار أنها غير مرئية.

لهذا كان لا بد لإدراكها من أن تكون قائمة على أساس من الإيمان، إذ الإيمان هو مبعث الإدراك في الغيبيات والتي تصلنا عن طريق الأخبار اليقينية، بمعنى أن تصديقها يقوم على الدليل النقلي ولو لم يستطع العقل أن يصل إلى حقيقة ماهيتها، فوجود الله سبحانه وتعالى قائم بالدليل النقلي بما أوحى به إلى نبيه عن طريق القرآن الكريم، وكذلك قائم بالدليل العقلي من ناحية التفكر في الآثار الدالة على وجوده - والتي خلقها الله - كخلق السموات، والأرض، والملائكة والجن، والجنة، والنار، كلها أمور غيبية، وإن كان العقل لا يدرك كنه حقيقتها فهو يسلم بها تبعاً للإخبار اليقيني الذي ورد في القرآن الكريم، بمعنى أن وجودها قطعي الدلالة ولو لم نلمسها أو نحس بها، فالألوان مثلاً لا يمكن للإنسان الأعمى الفاقد لبصره أن يدرك أو يميز بينها، وكذلك الروائح لا يمكن معرفتها أو التمييز بينها من قبل الفاقد لحاسة الشم. وهكذا بالنسبة لسائر الأمور التي يعتمد في إدراكها على الحواس من مسموعات أو مذوقات أو غيرها، كل هذه لا بد لها من وسائل للإحساس بها أو تصورها وإدراكها.

هذه الأشياء المادية بالنسبة لمن فقد وسائل الحس بها تعتبر بالنسبة إليه من عالم الغيبيات لأنه فاقد لمقومات إدراكها، ومع ذلك فإن هذا لا يمنعه من أن يؤمن بها ويصدقها بالدليل النقلي حتى ولو لم يستطع تصورها طالما أنه مؤمن، والإيمان هو معرفة القلب وإقرار اللسان وعمل بالأركان فالمؤمن بكتاب الله يؤمن بالغيبيات بل ويزداد إيماناً كلما تليت آياته.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قال تعالى:

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾[2].

فالذين لا يؤمنون بالقرآن لا يمكن أن يؤمنوا بالغيب لأن الله سبحانه وتعالى جعل على قلوبهم أكنة وجعل في آذانهم وقراً[3].

قال تعالى:

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا * وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾[4].

وعلى هذا فإن الإيمان يكشف معاني القرآن للإنسان، فمن يدرك حقائقه تتضح أمامه الحقيقة عن طريقه، فكما أن المعقولات كالحياة التي بها الأسماع والأبصار، فالقرآن كالمدرك بالبصر والسمع، وكما أن من المحال أن يسمع الميت قبل أن يجعل الله فيه الروح والسمع والبصر كذلك من المحال أن يدرك من لم يحصل المعقولات حقائق الشرع ولهذا قال الله تعالى:

﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ * وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾[5].

يعني آيات السموات والأرض[6].

---

(1) سورة التوبة، الآية: 124.

(2) سورة الأنفال، الآية: 2.

(3) الأكنة: جمع كنان وهو ما وقى شيئاً وستره مثل عنان وأعنة. والوقر: الثقل في الأذن.

(4) سورة الإسراء، الآية: 45 ـ 46.

(5) سورة الروم، الآية: 52 ـ 53.

(6) الراغب الأصفهاني ـ «الذريعة إلى مكارم الشريعة ص 125 ط 1 ـ 1980 بيروت.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فالإيمان بالغيبيات إذن مقتضاه الإيمان بالقرآن فمن يؤمن بالقرآن كان قلبه متفتحاً لفهمه، أما ما ليس كذلك فهو منكر للغيبيات.

قال تعالى:

﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾[1].

وهكذا نجد أن الأمور الحسية المادية بالنسبة لفاقدي الحواس إنما هي أمور بمثابة الغيبيات، ومع ذلك فإن الغيبيات الحقيقية البعيدة عن مجال الحواس وقدرتها والبعيدة عن تصورات العقل مسلم بها بالنسبة للمؤمن، أما الكافر بها، فينكرها على الرغم من قيام الأدلة النقلية أو العقلية بها، فإنهم يعطلون قدراتهم الفكرية والعقلية ويغلقون قلوبهم، ويعرضون عن التفكر في خلق السموات والأرض. فهؤلاء جعلوا على قلوبهم أكنة فأضحوا لا يفقهون ولا يعقلون، فهم كالصم البكم والعمي.

وقد قال تعالى في شأنهم:

﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[2].

هذا الصنف من البشر عمي على الرغم من وجود بصرهم السليم، فهم قد قفلوا على أنفسهم باب الهداية بل استحبوا العمي على الهدي وقد قال تعالى فيهم:

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾[3].

وقال تعالى مخاطباً رسوله ﷺ:

﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾[4].

---

(1) سورة النحل، الآية: 22.

(2) سورة البقرة، الآية: 171.

(3) سورة فصلت، الآية: 17.

(4) سورة الروم، الآية: 53.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقال تعالى:

﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[1].

وهكذا تجد أن إدراك العالم الخارجي إنما يتم عن طريق قوى الحواس التي هي المدخل لإدراكات الإنسان، ذلك أن القوى المدركة هي الحواس الخمس والخيال والفكر والعقل، والحفظ، وقد خص الله سبحانه وتعالى لكل واحدة خاصية معينة لأدراك الأشياء، فبالحس مثلاً يدرك الإنسان الحرارة والبرودة، والرطوبة واليبوسة، واللين والخشونة، والصلاة، والرخاوة، والثقل والخفة، كما أنه بحاسة الذوق يدرك الإنسان الحلاوة والمرارة، والملوحة والحموضة، وكذلك بالبصر مثلاً يدرك الإنسان النور والظلمة، واللون، والجسم وسطحه، وشكله، ووضعه، ورفعه، وإبعاده وحركاته، وسكناته، وإعداده.

هذا وإن أرفع هذه الإدراكات العقل ثم الفكر ثم التخيل ثم الحس، إلا أن العقل والفكر يدركان الأشياء الروحية. ولما كان إدراك أكثر الحقائق بهذه القوى المدركة، وكانت الفكرة خادمة للعقل، والتخيل خادماً والفكر تارة، وللسمع والبصر تارة، خص الله تعالى بالذكر القلب وهو أحد الطرفين والسمع والبصر هما الطرف الآخر ولذلك عظم الله تعالى المنة على الإنسان بإعطائه إياه هذه الثلاثة وحمد من استعملها وذم من أهملها فقال عز من قائل:

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[2].

وقال تعالى في ذم من لا ينتفع بهذه الحواس:

---

(1) سورة الزخرف، الآية: 40.

(2) سورة النحل، الآية: 78.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾[1].

وقد وصف الله تعالى هؤلاء فقال:

﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[2].

[فهؤلاء لا يفهمون المعنى ولا يورودونه مستنبطاً بالفكر ومدركاً بالفعل].

فبتضامن هذه الحواس يتدرج الإدراك إلى أن يستقر في الحكم على الشيء نتيجة لها ولإعمال الفكر والعقل. وبهذا يخلص الإنسان إلى القرار الذي يصدره على الشيء نتيجة لإيمانه به هذا في الأمور الحسية؛ أما في الأمور الغيبية فإن الحواس ليس لها طاقة لكشفها لا سيما وأنها محدودة القدرات، وأن عملها محدود في مجال معين، فإذا ما خرج الأمر عن هذا المجال عجزت الحواس عن إدراكه، وبالتالي يضحى الأمر المحجوب عن الحواس غيبياً بالنسبة للإنسان، بمعنى أن كل ما لا يسمعه أو يراه أو يحس به يعتبر من عالم الغيبيات، ولا قبل له بكشفه أو الإحساس به، كالكواكب، والأفلاك البعيدة عن المجال المحدد للرؤية الطبيعية، والتي تعتبر غائبة عن مجال حسنا البصري. ومع ذلك فإن الوسائل العلمية المستحدثة استطاعت أن تكشف لنا ما كان غائباً عنا أو مجهولاً في مداركنا كما هو الشأن في عوالم الذرة والالكترون والطاقة الكهربائية والمغناطيسية. كلها طاقات وقدرات لا يمكن رؤيتها على الرغم من كشف آثارها وهي قبل كشفها تعتبر بالنسبة للإنسان من عالم الغيبيات.

وعلى هذا نستطيع القول إن قدرات حواسنا المحدودة كماً وكيفاً عاجزة عن التقاط الأصوات البعيدة، كما أنها عاجزة أيضاً عن رؤية المرئيات الواقعة وراء مجال الرؤية الطبيعية.

---

(1) سورة الأعراف، الآية: 179.

(2) سورة البقرة، الآية: 171.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على أنه بتقدم الوسائل العلمية الكهربائية والألكترونية السمعية والبصرية استطعنا أن نسمع على بعد ألوف الكيلومترات، أو مئات الألوف الأصوات المرسلة عن طريق الأجهزة الناقلة والمرسلة، والتي بدونها يعتبر السمع والبصر بطاقاته الطبيعية، عاجزاً عن إدراكها، ولكن هذا العجز لا يعني أننا نستطيع إنكارها لمجرد أننا لا نستطيع سماعها أو رؤيتها. إذ هذا ما يتنافى مع مبادىء العقل وسلامة التفكير طالما أن هناك من أخبرنا بوجودها على وجه الصدق واليقين، فعلماء الفضاء مثلاً الذين ابتعدوا آلاف الكيلومترات عن القشرة الأرضية قد أعلمونا بأشياء غير مرئية بالنسبة لنا فآمنا بها وصدقناهم إذ لا يسعنا إنكارها، لأن الفكر والعقل لا تقوم قناعته دائماً على الأدلة الحسية المستمدة من طاقاتنا الحسية. بل يمكن أن يتكون الإيمان بالشيء عن طريق الأدلة النقلية التي يميز الإنسان بينها، من حيث صحتها أو عدمها، تبعاً للمقومات والأسس المطلوب توافرها في الدليل النقلي، وذلك ليصل إلى قناعة حولها، لا عن تصورها، بل عن وجودها، طالما أن المصدر في الإخبار صادق وبهذا يضحى الدليل النقلي في حكم الدليل الحسي، ويضحى الخبر على وجود الشيء المخبر عنه، قطعي الدلالة.

يخلص لنا مما تقدم أن الإيمان بالشيء لا يعتمد دائماً على إيجابيات حواسنا فقط، إذ قد تعجز الحواس عن تحقيق إدراكه الحسي، أو نقل حقيقته أو صورته إلينا، ومع ذلك نقبله اعتماداً على الدليل العقلي أو النقلي كما هو الشأن بوجود الله سبحانه وتعالى، والملائكة والجن واليوم الآخر كلها من الأمور الغيبية وإن كنا لا نستطيع إدراكها حسياً بحواسنا لأن حواسنا بطبيعتها محدودة الطاقات فضلاً أن هذه الغيبيات بطبيعتها غير قابلة للرؤية وهي محجوبة عن الإنسان وهذا لا يعني أنها غير موجودة إذ إن هذا النوع من الغيبيات، تقتضينا عقيدتنا أن نسلم بوجودها انطلاقاً من إيماننا بالله سبحانه وتعالى وبأنبيائه وبما أنزل عليهم من كتب، وبإيماننا بمحمد رسول الله ﷺ، وبالقرآن الكريم المنزل من عند الله وبما ورد فيه من أخبار. هذا الإيمان بطبيعته ينتهي بالإنسان إلى الإيمان بالغيبيات وفقاً لما أخبرنا الله عنها فهي إذن أخبار يقينية بكل ما يتحدث الله عنه، عن قيام الساعة وحشر الأجساد مع أرواحها وعن الميزان والصراط، والحساب، والجنة، والنار.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هذه الأمور الغيبية لو لم يخبرنا الله عنها لما استطعنا تصورها أو الإيمان بها لأن عقلنا بحدوده وطاقاته عاجز عن إدراكها، لأنه كما للبصر وللسمع حدود ينتهيان إليها كذلك فإن للعقل في تفكيره وإدراكاته حدوداً ينتهي إليها أيضاً، وإلى هذا أشار الإمام الغزالي في كتابه (الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى) في ختام الفصل الأول منه فقال ما خلاصته: «إن ما وراء العقل قد يكون بعيداً عن تصور العقل وتوهمه بعداً بالغ النهاية. لأن العقل محجوب عنه في حدوده التي لا يستطيع أن يتعداها، لكنه لا يمكن أن تكون وراء العقل أشياء يحكم العقل حكماً قاطعاً باستحالتها، فهناك فرق كبير بين ما يدركه العقل فهو لا يتناوله بنفي ولا إثبات، لأنه ليس من الأمور التي يتناولها بأحكامه، وبين ما يحكم العقل قطعاً بنفيه أو إثباته»[1] وعلى هذا نستطيع القول: إن كل ما أخبرنا الله عنه ولو لم ندركه بعقلنا وحواسنا يقتضي تصديقه، لأنه يستحيل على العقل بطاقاته إدراكه، لا سيما وأنه لم يمر على الإنسان نموذج من أمثاله في هذه الدنيا حتى نستطيع تصوره عن طريق القياس أو المشابهة، إذ القاعدة «أن الحكم على الشيء فرع عن تصوره» فتصور الأشياء المرئية تابع لسبق إدراكها عن طريق الحواس، فما ليس بمرئي ولا مسموع ولا ملموس لا يستطيع العقل أن يصدر حكمه فيه لا سيما وأن الأحداث والوقائع لا بد وأن تقترن بزمان ومكان، ولما كانت معطيات الغيبيات لا تكون مقترنة بزمان ومكان كما هو الشأن بالنسبة لعالم الغيب والشهادة ـ الله سبحانه وتعالى ـ فوجوده غير محدود بزمان أو مكان، لأنه عز شأنه خالق الزمان والمكان وهو متفرد في ذاته، وكل ما يخطر ببالك فالله بخلاف ذلك. هذا كما أن الزمان والمكان في الدنيا أمران نسبيان على وجه الأرض تبعاً للتقسيمات الفلكية للدورة الشمسية، كما أن القيم الحسية من جاذبية أووزن أو زمان قائمة على الكوكب الأرضي أما إذا ابتعدنا عنها فالأمر يختلف تماماً، كذلك بالنسبة للمكان، فهو محدود بحدود الكرة الأرضية فإذا ابتعدنا عن الغلاف الأرضي يضحى الأمر غير محدود، فهناك سموات لا يمكن تصورها على وجه ما ـ لأنها من عالم الغيبيات ـ إلى في

(1) الراغب الأصفهاني ـ المرجع السابق، ص 23.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حدود ما أخبرنا الله عنها قال تعالى:

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[1][2].

وقال تعالى:

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾[3].

وقال تعالى:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾[4].

وقال تعالى:

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾[5].

وهكذا فإن عقل الإنسان لا يستطيع بقدراته المحدودة الحكم على الأشياء غير المحدودة، مما يتعين تبعاً لإيماننا بالله عز شأنه أن نؤمن بالغيبيات على أنها من المسلمات التي لا تقبل النقاش والجدل. وقد أشار الإمام الغزالي إلى اختلاف مدركات البصائر وتفاوتها فقال:

«فافهم أن مدركات البصائر أيضاً متفاوتة، فمنها ما تحيط العقول بكنه حقيقته، ومنها ما تقصر العقول عنه، وما تقصر العقول عنه ينقسم إلى ما لا يتصور أن يحيط به بعض العقول وإن قصر عنه أكثرها، وإلى ما لا يتصور أن يحيط العقل أصلاً بكنه حقيقته، وذلك هو العظيم المطلق الذي جاوز جميع حدود العقل حتى لا يتصور الإحاطة بكنهه، وذلك هو الله تعالى»[6].

وإذا كان الأمر بالنسبة للأمور الغيبية المادية أو الروحية البعيدة عن

---

(1) نقلاً عن عبد الرحمٰن حنبكة - «العقيدة الإسلامية ص 20 الهامش، ط 1966.

(2) سورة النحل، الآية: 77.

(3) سورة البقرة، الآية: 29.

(4) سورة الطلاق، الآية: 12.

(5) سورة الزمر، الآية: 46.

(6) الإمام الغزالي - «المقصد الأسني في شرح أسماء الله الحسنى» ص 113، دار المشرق - بيروت - لبنان 1982.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

متناول حسنا وإدراكنا والقائمة منها في عالم الدنيا هذا شأنها بالنسبة لموقف الإنسان منها، فمن باب أولى أن الأمور الغيبية الأخروية، والتي لا تقع تحت طائلة حواسنا وعقلنا يصعب الوصول إلى برهان عقلي مادي على وجودها إن لنؤمن بها تسليماً ويقيناً وما على الإنسان إلا أن يقف منها موقفاً إيجابياً طالما أننا سلمنا بوجود الله سبحانه وتعالى وقدرته غير المحدودة في خلقه ومشيئته في عالم الدنيا والآخرة، فهو المبدي والمعيد فالتسليم بهذا يقتضي حكماً التسليم بالغيبيات جميعها من حشر أو بعث أو جنة أو نار دون أن نتلمس البرهان الحسي بأنفسنا لا سيما وأن هناك من أطلع على بعضها أو أخبر بوجودها على وجه اليقين وبلغنا إياها. ذلك هو الرسول الأمين محمد ﷺ الذي حدثنا عنها. وهو المخبر الصادق حيث اطلع في اسرائه الذي أسرى به الله ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى حيث عرج به إلى السموات، ثم إلى سدرة المنتهى فأطلعه الله على ما هنالك من عوالم ثم أعاد فأخبرنا بما رآه تطميناً للنفوس وتنويراً وتبصيراً لما غاب عنا من تلك العوالم لنكون على يقين من عقيدتنا طالما أننا مؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر. فكل ما تحدث عنه الرسول ﷺ أو ما وصفه لنا أو ما أخبرنا به عن اليوم الآخر يقتضي التسليم به قال تعالى في معرض وجوب تصديقه:

﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ * عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾[2].

هذا الإخبار من قبل الله إنما هو الحجة على تمام اليقين بقطعية الدلالة

(1) سورة النجم، الآية: 1 ـ 2 ـ 3.

(2) سورة النجم، الآية: 13 ـ 14 ـ 15.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على صدق ما رآه الرسول ﷺ وأخبر به إذ أن قضايا الغيب ثابتة بالقرآن وبالبرهان من أصدق إنسان على وجه الإطلاق فهو لا يضل ولا يغوى ولا ينطق عن هوى لهذا اقتضى أن يكون موقف الإنسان من هذه الأمور موقف التصديق والإيمان بها على وجه اليقين.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثاني
عالم الغيب

علمنا فيما سبق أن الإنسان مخلوق، وأن الله سبحانه وتعالى خلقه في هذا الكون من جملة ما خلق فيه من عوالم حسية مرئية، أو غير مرئية تدخل في شمول الغيبيات الدنيوية، كما وخلق الله الغيبيات الأخروية كل هذه المخلوقات لا تعد ولا تحصى ولا يحيط بعلمها إلا هو سبحانه وتعالى العالم بكل شيء «وعلماً ظاهره وباطنه دقيقه وجليله، أوله وآخره عاقبته وفاتحته، وهو الذي ينكشف في علمه حد كل معلوم وعدده ومبلغه، فالله سبحانه وتعالى المحيط بكل شيء هو المبدىء والمعيد الموجد الذي بدأ خلق الناس وهو الذي يعيدهم، فيحشرهم يوم البعث. أو القيامة التي تدخل في شمول الغيبيات، والقادر على إقامتها لو شاء الآن وإن لم يشأها ولا يشاؤها لما جرى في سابق علمه من تقدير أجلها ووقتها. وهكذا فإن الأشياء من حسيات وغيبيات كلها منه بدت وإليه تعود، وبه بدت وبه تعود»[1].

هذا أما بالنسبة للإنسان فإن علمه تعلمي، يدرك الأشياء بالقدرات والحواس التي أودعها الله فيه، بمعنى أن علمه بالمحسوسات المادية مستفاد من وجود الأشياء المخلوقة باعتبارها من العوالم المادية المشاهدة والقائمة والظاهرة للعيان، وكل ذلك ضمن نطاق القدرات المخولة له رؤيتها أو كشفها، فإن لم يكتشفها تبقى بالنسبة له من عالم الغيبيات كما هو الشأن في بعض عوالم الغيب التي كانت مجهولة بالنسبة للإنسان، ثم أضحت بعد اكتشافها وإجراء التجارب عليها معروفة. كالذرة مثلاً، والخلية الحيوانية وما تحتوي من (كروموزمات) التي هي وحدة المادة العضوية والعامل في نقل

(1) الإمام الغزالي ـ المرجع السابق، ص 142 ـ 145.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الصفات الوراثية؛ فهذه كانت من عالم الغيب قبل كشفها، وينطبق هذا على كل ما هو قابل للاكتشاف من عالم المادة. أما بالنسبة لما عجز الإنسان عن كشفه ومعرفته فقد بقي في عالم الغيب كالروح السارية في كل إنسان، هذه الروح لا نسمعها، ولا نراها، ولا نلمسها، كما أنها غير قابلة للتذوق أو الشم، ومع ذلك فهي موجودة وقائمة. ومن المكابر أن ننكرها أو لا نؤمن بوجودها، وإن كنا لا نراها بيد أننا نحس بها، إذ أننا نتألم أو نسر بها، كما أننا أحياء بوجودها في الجسم وهي فيصل التمييز بين الحياة والموت تبعاً لبقائها أو انتقالها إلى برائها[1] «هذه الروح إذن من عالم الغيبيات ومع ذلك فقد استدللنا على وجودها بآثارها من جهة، وبالدليل النقلي الوارد في كتاب الله من جهة أخرى، على الرغم من أننا لا نستطيع إدراك كنهها وحقيقتها؛ وهذه الروح هي أقرب القوى إلى الحياة الباقية والمخفية عن مداركنا الحسية، فهي إذن من عالم الغيب التي استأثر الله سبحانه بعلمه بها، واحتجبت عن أنبيائه، لأنه سر الوجود المطلق لا قدرة للعقل الإنساني المحدود عن الإحاطة بها ووعيها، إلا بما يناسبه من الإشارة والتقريب»[2].

قال تعالى:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[3].

---

(1) لقد توصل علماء الحياة بدراسة أسباب الموت، أن الموت لا يحصل نتيجة لتوقف القلب أو بموت خلايا المخ، إذ أنه أعلن في مستشفى جامعة طوكيو أنه قد تم بنجاح إعادة مخ رجل للحياة بعد أن توقف نشاطه عدة شهور وعلى هذا فليس من تفسير للموت سوى أنه مغادرة الروح للجسم إذ في حالات كثيرة، والجسم في أتم صحة والأعضاء في أكمل حالاتها، تغادر الروح الجسد بلا سبب غير ما سبق تقديره من الله سبحانه وتعالى من أجل قاطع لموت صاحبها، فيموت الإنسان بلا سبب معروف وبلا علة واضحة وبما لا علاقة له إطلاقاً بالجسم. وفي حالات أخرى تتوقف الأجهزة كالقلب، والرئتين، والكلي والمخ ويموت الإنسان فما من تفسير علمي وتعريف للموت إلا ما جاء به القرآن: ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ [الزمر: 42].

(2) عباس محمود العقاد ـ «الإنسان في القرآن» ص 63، الطبعة الثانية 1969 بيروت.

(3) سورة الإسراء، الآية: 85.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهناك من عالم الغيب ما لا يمكننا بحال من الأحوال رؤيته أو معرفة ذاته وهو الله أو قبول أي تصور عنه، أو تخيل حقيقته، إنما أدركناه بالإيمان به واستدلالاً بما خلقه الله وقدره وقضاه في هذا الكون من عوالم حسية أو غيبية «كخلقه الأرض والسموات السبع والكواكب والأفلاك وحركاتها المتناسبة الدائمة التي لا تتغير ولا تنعدم إلى أن يبلغ الكتاب أجله. قضاؤه كما قال تعالى:

﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ (1).

«وتوجيه هذه الأسباب بحركاتها المتناسبة المحدودة المقدرة المحسوبة إلى المسببات الحادثة منها لحظة بعد لحظة قدره، فالحكم هو التدبير الأول الكلي، والأمر الأولى الذي هو كلمح البصر، والقضاء هو الموضع الكلي للأسباب الكلية الدائمة، والقدر هو توجيه الأسباب الكلية بحركاتها المقدرة المحسوسة إلى مسبباتها المعدودة، بقدر معلوم لا يزيد ولا ينقص، ولذلك لا يخرج عن قضائه وقدره شيء»(2) «سواء من العالم المحسوس أم عالم الغيب فالله سبحانه وتعالى إذ هو من عالم الغيب لا يمكن تكييفه أو تشبيهه أو رؤيته. إذ تاهت الألباب عن تكييفه وتحيرت العقول عن إدراكه، تفرد بعلم الغيوب فعلم ما كان وما يكون، وما لا يكون لو كان كيف كان يكون»(3) فنحن إذن عاجزون عن الإحاطة بذات الله بل لا يجوز لنا البحث عن سر ذات الله. وإلى هذا يشير الإمام الأصفهاني حيث يقول:

«وغاية معرفة الإنسان ربه أن يعرف أجناس الموجودات، جواهرها وأعراضها المحسوسة والمعقولة، ويعرف أثر الصنعة فيها وأنها محدثة، وأن محدثها ليس إياها ولا مثالها، بل هو الذي يصح ارتفاع كلها مع بقائه تعالى، ولا يصح بقاؤها وارتفاعه، وبهذا النظر قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: سبحان من لم يجعل لخلقه سبيلاً إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته، بل لهذا قال عليه الصلاة والسلام: «تفكروا في لا إله إلا الله ولا

---

(1) سورة فصلت، الآية: 12.

(2) الإمام الغزالي ـ المرجع السابق ص 98 ـ 99.

(3) أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي ـ «مفاهيم من كتاب العقل وفهم القرآن» ص 263.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تتفكروا في ذات الله». ولما كانت معرفة كنهه تصعب على الإنسان الواحد لقصور أفهام بعضهم واشتغال بعضهم بالضرورات التي يعرفها منهم جعل تعالى لكل إنسان من نفسه وبدنه عالماً صغيراً أوجد فيه مثال ما هو موجود في العالم الكبير، يجري ذلك من العالم مجرى مختصر من كتاب بسيط يكون مع كل أحد نسخة يتأملها في الحضر إلى السفر والليل والنهار، فإن نشط وتفرغ للتوسط في العلم، نظر في العالم الكبير الكتاب الكبير الذي هو الملكوت، ليغرز علمه ويتسع فهمه، وإلا فله مقنع بالمختصر الذي معه، ولهذا قال: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾[1] ولشرف متأملي ذلك قال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ﴾[2]

وقال تعالى:

﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ * ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ﴾[3] فنبه بمدحهم حيث قالوا:

﴿رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ﴾[4] إنهم عرفوا المقصود بخلقه[5].

وهكذا نجد أن معرفة ذات الله سبحانه وتعالى لا يمكن الإحاطة بها وما من أحد يستطيع أن يحيط بالله علماً إذ ليس كمثله شيء وهو من عالم الغيب قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾[6].

وقال تعالى:

---

(1) سورة الذاريات، الآية: 21.

(2) سورة الأعراف، الآية: 185.

(3) سورة آل عمران، الآية: 190 ـ 191.

(4) سورة آل عمران، الآية: 191.

(5) الراغب الأصفهاني ـ «الذريعة إلى مكارم الشريعة» ص 119 ـ 120.

(6) سورة طه، الآية: 110.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾[1].

وقوله تعالى:

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[2].

وقال تعالى واصفاً نفسه بوحدة الإلوهية والربوبية وبتفرده بعلم الغيب وإحاطته به.

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾[3].

هذه الصفات الخاصة بالله سبحانه وتعالى هي بالنسبة لنا من عالم الغيب ولا يمكن إدراك كنهها وحقيقتها. كما أن هناك مخلوقات خلقها الله سبحانه وتعالى ولا كسب لأحد فيها مطلقاً وهي تقع في هذا الكون على وجه القسر والحتم كحركة الأفلاك والفصول، والنمو في النبات والحيوان والإنسان وحركة وظائف الأعضاء الذاتية التلقائية، وكذا حركة الروح والحياة والموت، كلها تتم بعلم الله وهي مخلوقة بقضائه وقدره ليس لأي إنسان عليها من سبيل. كذلك فإن ما خلقه وقضاه وقدره من عالم الآخرة من بعث، وصراط، وجنة ونار ومساءلة وعقاب أو ثواب، كلها تتم بأمره وقدرته وحكمته.

هذه العوالم والأشياء المخلوقة الحسية أو الغيبية أي سواء ما كان ماثلاً أمامنا أو ما كان غائباً عنا كلها خلقت بقدرته وقضائه وقدره ولا قبل لنا

---

(1) سورة الأنعام، الآية: 91.

(2) سورة الزمر، الآية: 67.

(3) سورة البقرة، الآية: 255

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لإدراك كنهها، أو التحكم في حركاتها، إيقافها أو تسييرها، تغييرها أو تبديلها، أو إنشائها أو إعدامها. فهي جميعها من خلقه ومعرفته وعلمه وإحاطته عالم الغيب مخصص به ليس لأحد أن يطلع على غيبه لأن الأدلة السمعية والبصرية المخلوقة للإنسان مهيأة بطاقات محدودة بما يناسبها من الإحساس بالمعلومات أو المعارف أو المرئيات الدنيوية التي تدخل في مجالها مجال قدرتها وطاقاتها المزودة بها، أما ما يخرج عن هذه القدرات فلا قبل لها لرؤيتها أو سمعها، إذ إن السمع والبصر إذ يتم وقوعها في الدنيا إنما يتم باعتبارها انطباعاً بصورة المرئي في الحدقة إذا توافرت في المرئي الشروط التي تتناسب وقدرات الحدقة، أما رؤية الله سبحانه وتعالى مثلاً، فهي من الأمور الغيبية والتي لا تتم إلا بقدره وقضائه على الوجه الذي يشاؤه أو لا يشاؤه أو لمن يشاؤه سواء كانت الرؤية نفسية أو بصرية باعتبار أن الله عز وجل ليس جسماً ولا يحد بحد، كما لا تحده جهة فليس بوسع البصر البشري رؤيته لقوله تعالى:

﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[1]

فنفى الله سبحانه وتعالى أن يدركه أحد بالبصر، والإدراك بالبصر هو الرؤية ويستشهد المعتزلة على نفي رؤية الله سبحانه وتعالى، لأنه ليس في الأدلة السمعية ما يثبت أن العباد يرون الله سبحانه بل إن الإله يفيد نفي إمكانية رؤيته بقوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام:

﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾[2].

هذا ويلاحظ أن البحث في جواز رؤية الله تعالى أو عدم جوازها، وإن

---

(1) سورة الأنعام، الآية: 103.

(2) سورة الأعراف، الآية: 143.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كان من الأمور الغيبية بيد أن إقرار الرؤية أو إنكارها لا يدخل في شمول العقيدة، لأن المساءلة خلافية، فبعضهم أنكر على العقول قبول جواز رؤية العباد ربهم، وهو رأى المعتزلة، بينما أجمع جمهور المسلمين وهم أهل السنة على أن ذلك مما يدخل في الممكنات، وأن الرؤية أعم من أن تكون انطباعاً لصورة المرئي في الحدقة، وإنما هي قوة يجعلها الله في الإنسان متى شاء وكيف شاء فيتم بها مشاهدة صورة المرئي على حقيقته. وأما الكيفية التي تحصل الرؤية بها اليوم فهي ليست إلا كيفية من كيفيات كثيرة كان الله عز وجل ولا يزال قادراً على ربط حقيقة الرؤية بما شاء منها، وبناءً على ذلك نقول: على الرغم من أن الله تعالى ليس جسماً، ولا هو متحيز في جهة ما من الجهات، فإن من الممكن أن ينكشف لعباده انكشاف القمر ليلة البدر كما ورد في الأحاديث الصحيحة وأن يروا ذاته رؤية حقيقية لا شبه فيها، وستحصل هذه الرؤية إن شاء الله بدون الشرائط التي لا بد منها للرؤية اليوم، وكما يقول الجلال الدواني؛ لا يلزم من كون تلك الشرائط شرطاً في إدراكنا في هذه النشأة كونها شرطاً في النشأة الآخرة فأهل السنة والجماعة يقولون بجواز رؤية الله بل إن الرؤية واجبة وثابتة بالسمع وقد وردت أدلة تثبت ذلك كقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[1].

وقوله تعالى:

﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾[2].

وهذه عقوبة لغير الصالحين. أما الصالحون فيرون ربهم تكريماً لهم. وعلى هذا أجمع عامة الصحابة على وقوع الرؤية في الآخرة[3] ومع ذلك فقد اختلف أهل السنة والجماعة على أنه هل دل السمع على وقوع الرؤية أم إمكان وقوعها لأحد الناس في الدنيا؟ فمنهم من قال إنه لم يرد السمع إلا بما يفيد على الرؤية في الآخرة فقط، وأن الذي جاء به السمع هو امتناع رؤية أحد الناس ربه قبل الموت. وذلك سنداً للحديث، فقد روى البخاري

---

(1) سورة القيامة، الآية: 22 ـ 23.

(2) سورة المطففين، الآية: 51.

(3) سعيد البوطي ـ «كبرى اليقينيات الكونية ـ ص 170 وما بعدها.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وغيره عن مسروق قال قلت لعائشة رضي الله عنها، يا أماه هل رأى محمد ﷺ ربه؟ فقالت لقد قف شعري مما قلت، أين أنت من ثلاث من حدثكهن فقد كذب: من حدثك أن محمداً ﷺ رأى ربه فقد كذب، ثم قرأت:

﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[1].

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ﴾[2].

ومن حدثك أنه يعلم ما في غدٍ فقد كذب. ثم قرأت:

﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾[3].

ومن حدثك أنه كتم فقد كذب وقرأت قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾[4].

ولكن رأى جبريل عليه السلام في صورته مرتين.

هذا وذهب الأكثرون إلى أنه قد دل السمع على جواز رؤية الله تعالى في دار الدنيا. ومن هذا الرأي عبد الله بن عباس رضي الله عنه ومعه جمهور الصحابة، ومن أهم أدلتهم حديث الإسراء والمعراج وقوله تعالى:

﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾[5].

وهكذا نجد أن هذه المسألة تدخل في شمول الغيبيات، ويروي الربيع رحمه الله أنه كان عند الشافعي وجاءه كتاب من الصعيد يسأل فيه كاتبه عن

---

(1) سورة الأنعام، الآية: 103.

(2) سورة الشورى، الآية: 51.

(3) سورة لقمان، الآية: 34.

(4) سورة المائدة، الآية: 67.

(5) سورة الإسراء، الآية: 60.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قوله عز وجل: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾[1] فكتب لما حجب قوماً بالسخط دل على أن قوماً يرونه بالرضى، فقال له الربيع، أو تدين بهذا يا سيدي؟ فقال والله لو لم يوقن محمد بن إدريس أنه يرى ربه في المعاد لما عبده في الدنيا[2].

وخلاصة القول أنه كيفما كان أمر رؤية الله سبحانه وتعالى سواء كانت محققة في الدنيا أو في الآخرة ممكنة أو غير ممكنة، فهي من الأمور الغيبية التي لا يخرج الإيمان بها عن عقيدة المسلم باعتبار أن المسألة خلافية عند الصحابة[3]. كما أن الرؤية هل هي رؤية نفسية أو بصرية، وهل هي في الدنيا أم في الآخرة أمور تعتبر من الغيبيات التي لم يكن لدينا عليها دليل حسي، ذلك أن عالم الغيب منفرد به الله سبحانه وتعالى، حتى إن الرسول محمد ﷺ قد تبرأ من علم الغيب وقد أعلن عدم علمه به إلا بما يعلمه الله جل شأنه به، إذ لا يملك الرسول ﷺ لنفسه جلب المنفعة أو النجاة من الضر إلا بما شاء الله رب العالمين، وعلى هذا فقد كان متقيداً باتباع الوحي وقد قال تعالى على لسان محمد ﷺ:

﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾[4]

وقال تعالى:

﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[5].

---

(1) سورة المطففين، الآية: 15.

(2) السبكي ـ «الطبقات الكبرى» ج 1، ص 81.

(3) البوطي ـ المرجع السابق ص 172 وما بعدها.

(4) سورة الأنعام، الآية: 50.

(5) سورة الأعراف، الآية: 188.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وعلى هذا فإن علم الغيب ومعرفته أو الإحاطة به أمر مقصور على ذات الله سبحانه وتعالى وفيه يدخل كل ما لا طاقة لنا به لإدراكه كحقيقة الموت، وعذاب القبر، واليوم الآخر، والبعث ومفهومه وهل هو إيجاد ثان أم أنه إيجاد كالأول. كل هذه الأمور، ما علينا إلا أن نسلم بما أعلمنا الله عنها كما قد أعلمنا أنه سبحانه وتعالى بعلمه الغيب وقدرته أنه الباعث هو، والبعث أثر من أمور الغيب الهامة وأن الله سبحانه وتعالى هو الذي يحيي الخلق يوم النشور ويبعث من في القبور ويحصل ما في الصدور، والبعث هو النشأة الآخر. ومعرفة هذا الاسم موقوفة على معرفة حقيقة البعث وذلك من أغمض المعارف وأكثر الخلق منه على توهمات مجملة وتخيلات مبهمة وغايتهم فيه تخيلهم أن الموت عدم والبعث إيجاد مبتدأ بعد عدم مثل إيجاد الأول، فظنهم أن الموت عدم غلط، وظنهم أن الإيجاد مثل الإيجاد الأول غلط، فأما ظنهم أن الموت عدم فهو باطل، بل القبر إما حفرة من حفر النيران، أو روضة من رياض الجنة، والميت إما من السعداء وأولئك ليسوا: ﴿أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾[1].

وأما من الأشقياء وهم أيضاً أحياء ولذلك ناداهم رسول الله ﷺ في وقعة بدر وقال: «إني وجدت ما وعدني ربي حقاً، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً» ثم لما قيل له: «كيف تنادي قوماً قد جيفوا» قال: «ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا». والمشاهدة الباطنة دلت أرباب البصائر على أن الإنسان خلق للأبد وأنه لا سبيل عليه للعدم، تارة يقطع تصرفه عن الجسد فيقال: مات، وتارة يعاد إليه فيقال: أحيي وأبعث، أي أحيي جسده. ويستمر الإمام الغزالي رحمه الله في شرح مفهوم الباعث والبعث فيقول: وأما ظنهم أن البعث ليس إيجاداً ثانياً وهو مثل الإيجاد الأول فغير صحيح، بل أن البعث إنشاء آخر، لا يناسب الأول أصلاً. وللإنسان نشآت كثيرة، وليست هي نشأتين فقط، ولذلك قال تعالى:

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 169 ـ 170.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

﴿وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[1].

وقد بين الله سبحانه خلق المضغة والعلقة في نشآت عديدة متسلسلة، فقال الله سبحانه وتعالى:

﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[2].

وهكذا نجد أن النطفة نشأة من التراب والعلقة نشأة من النطفة، والمضغة نشأة من العلقة، والروح نشأة من المضغة ولشرف نشأة الروح وجلالته وكونه أمراً ربانياً قال عند ذلك: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[3].

ثم خلق الإدراكات الحسية بعد خلق أصل الروح نشأة أخرى، ثم خلق التمييز الذي يظهر بعد سبع سنين نشأة أخرى، ثم خلق العقل بعد خمس عشرة سنة وما يقاربها نشأة أخرى. وكل نشأة طور. ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾[4] ثم ظهور خاصية النبوة بعد ذلك نشأة أخرى، وهي نوع من البعث والله سبحانه وتعالى باعث الرسل، كما أنه الباعث يوم القيامة[5].

وهكذا نجد أن هذه النشآت العديدة تنتهي بالموت.

فقال تعالى:

﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾[6] هذا الموت ليس أبدياً وأنه لا سبيل

---

(1) سورة الواقعة، الآية: 61.

(2) سورة المؤمنون، الآية: 14.

(3) سورة المؤمنون، الآية: 14.

(4) سورة نوح، الآية: 14.

(5) الإمام الغزالي ـ «القصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى ص 133 ـ 135.

(6) سورة المؤمنون، الآية: 15.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

للإنسان عليه للعدم بدليل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾[1].

هذه الأمور من عالم الغيب فما هي القيامة حقيقتها وماهيتها؟ زمانها ومكانها؟ كلها أمور تقع في شمول عالم الغيب الذي لا يعلم حقيقته إلا الله سبحانه وتعالى، لأن الإنسان يعسر عليه فهم هذه الأمور بإدراكاته الدنيوية. وما عليه إلا التسليم والإيمان بها. وأن إدراكها ليس بشرط للإيمان بها لأن عدم بلوغ الإنسان لشيء ما لا يعني أنه غير موجود. ولهذا دعا الإمام الغزالي إلى وجوب الإيمان بالأمور الغيبية معتمداً في البرهان على وجودها أسلوب التحليل المنطقي والتدرج في الإدراكات فما لم يدرك يعتبر من عالم الغيب، ولا يعني أنه عدم، لأن كل المعلومات والإدراكات المتدرجة التي كانت عدماً أو غائبة عن الإنسان قد تضحى ظاهرة وثابتة عنده إذا تقدمت إدراكاته ثم يخلص إلى أن غياب الشيء عن إدراك الإنسان لا يمكن أن يكون مبرراً لإنكاره للشيء لأن إدراكات البشر إنما تتم تبعاً لطاقات متدرجة في الرقي والقدرة، فما كان بالأمس غائباً عن الإدراك يضحى معلوماً بعده فيقول:

«وكما أنه يعسر على ابن المهد فهم حقيقة التمييز قبل حصول التمييز، ويعسر على المميز فهم حقيقة العقل وما ينكشف في طوره من العجائب قبل حصول العقل، فكذلك يعسر فهم طور الولاية والنبوة في طور العقل، فإن الولاية طور كمال وراء نشأة العقل، كما أن العقل طور كمال وراء نشأة التمييز، والتمييز طور وراء نشأة الحواس، وكما أن من طباع الناس إنكار ما لم يبلغوه ولم ينالوه، حتى إن كل واحد ينكر ما لم يشاهد ولم يحصل له، ولا يؤمن بما غاب عنه. فمن طباعهم إنكار الولاية وعجائبها، والنبوة وغرائبها، بل من طباعهم إنكار النشأة الثانية والحياة الآخرة لأنهم لم يبلوغها بعد. ولو عرض طور العقل وعالمه وما يظهر فيه من العجائب على المميز لأنكره وجحده وأحال وجوده فمن آمن بشيء لم يبلغه، فقد آمن بالغيب،

(1) سورة المؤمنون، الآية: 16.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وذلك مفتاح السعادات.

وكما أن طور العقل وإدراكاته ونشأته بعيد المناسبة عن الإدراكات التي قبله فكذلك النشأة الآخرة. بل أبعد، فلا ينبغي أن تقاس النشأة الآخرة بالأولى، وهذه النشآت هي أطوار ذات واحدة ومراقيها التي تصعد فيها إلى درجات الكمال، حتى تقرب من الحضرة التي هي منتهى كل كمال، وتكون عند الله عز وجل بين رد وقبول وحجاب ووصول فإن قبل رقى إلى أعلى العليين، وإلا رد إلى أسفل السافلين.

والمقصود الآن أن لا مناسبة بين النشأتين إلا من حيث الاسم ومن لم يعرف النشأة والبعث لم يعرف الباعث. ثم يقول منبهاً إلى أن حقيقة البعث ترجع إلى إحياء الموتى بإنشائهم نشأة أخرى[1].

وعلى هذا فإن الله سبحانه وتعالى العالم بقضائه وقدره، والخالق لعالم الغيب والشهادة والمالك ليوم الدين يعلم ما خفي وما بطن، ولا تخفى عليه خافية، فهو يرى ويعلم كل غيب مجهول فيجسد منه حقائق بارزة ونماذج ظاهر أثرها للعيان، كتخلق المولود في رحم الأنثى بدءاً من أول مرحلة إلى آخرها.

قال تعالى:

﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾[2]. هذا العلم الدقيق لما ينقصه الرحم أو يزيده في الجنين المخلوق أو في مدة حمله له، يدل دلالة واضحة على قدرة الله ودقته في نطاق خلقه فكل شيء عنده بمقدار فليس ما قد يتخلق في الرحم من شتى المخلوقات وما يعتريه من تطور في الجثة تبعاً للزمن إنما يتم مصادفة أو نتيجة اضطراب تلقائي أو تحول ذاتي بل كل شيء يسير بنظام شامل دقيق تبعاً لمشيئته سبحانه وتعالى، فالله عز وجل عالم الغيب يعلم ما خفي وما بطن وما لا يقع تحت إدراك شتى الحواس، كما يعلم ما يظهر وما

---

(1) الإمام الغزالي ـ المرجع السابق ص 135 ـ 136.

(2) سورة الرعد، الآية: 8.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يقع ويخضع لحاسة ما، وما يشاهد إطلاقاً، فهو العليم إذن ببواطن الأمر وخفاياها وهو الخبير بها كما هو العليم بالأمور الظاهرة، والشهيد على الخلق يوم القيامة بما علم وشاهد منهم فالله العالم بكل شيء ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾[2] فعالم الغيب والشهادة رب العالمين رفيع الدرجات ذو العرش العظيم خلق الناس وخلق عالم الغيب وأمر بالإيمان به فلم يترك الناس سدى فهم محاسبون على أعمالهم يوم التلاق فقال تعالى في وصفه لصفات الربوبية:

﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾[3].

وقال تعالى مؤكداً يوم القيامة يوم يتلاقى الناس مع ما قدموه من أعمال ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾[4].

هذا اليوم هو من عالم الغيب، وهو اليوم الذي تجزى كل نفس بما كسبت بحيث تحاسب تبعاً لأعمالها قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾[5].

هذا اليوم هو من عالم الغيب يتجلى الله فيه على عباده ويحاسب

---

(1) سورة الرعد، الآية: 10.

(2) سورة طه، الآية: 7.

(3) سورة غافر، الآية: 15.

(4) سورة غافر، الآية: 16.

(5) سورة غافر، الآية: 17.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الناس بما كسبوا فتشهد عليهم أعمالهم بقدرة العليم بالظاهر والباطن الذي يعلم ما خفي وما بطن من الأمور فهو الظاهر الذي يمكن معرفته عن طريق آثاره بالإضافة إلى إدراك العقل بطريق الاستدلال فيكون ظاهراً من وجه بالإضافة إلى الإدراك، كما ويكون الله هو الباطن من وجه آخر. فالظهور والبطون يكونان بالإضافة إلى الإدراكات فإذا كان الله ظاهراً بالنسبة لآثاره المخلوقة فهو الباطن بالإضافة إلى الحواس التي لا يمكن إدراكه عن طريقها أو عن طريق الخيال أو التصور، أما كونه ظاهراً للعقل فهذا أيضاً غامض لأن الظاهر لا يختلف الناس في إدراكه علماً أن هذا قد وقع فيه عند الناس كثير من الريب لهذا فقد تساءل الإمام الغزالي، كيف يكون ظاهراً؟ فأجاب على تساؤله بقوله: **«فاعلم أنه إنما خفي مع ظهوره لشدة ظهوره، فظهوره سبب بطونه، ونوره هو حجاب نوره، وكل ما جاوز حده انعكس على ضده**[1] ويوضح الإمام الغزالي قوله هذا بمثال فيقول لو نظرت إلى كلمة واحدة كتبها كاتب لاستدللت بها على كون الكاتب عالماً قادراً سميعاً بصيراً واستفدت منه اليقين بوجود هذه الصفات، ولحصل لك يقين قاطع بوجود كاتب لها عالم، قادر، سميع، بصير، حي ولم يدل عليه إلا صورة كلمة واحدة، وكما تشهد هذه الكلمة شهادة قاطعة بصفات الكاتب، فمن البديهي إذن أن ندرك أن عالم الغيب والشهادة مستدل على وجوده بما خلقه ودبره وقضاه وقدره بدقة محكمة مرتبة، فما من ذرة في السموات والأرض من فلك وكواكب ونجوم وشمس وقمر وحيوان ونبات وصفة وموصوف إلا وشاهدة على نفسها بأنها ليست ذاتية الخلق إنما قامت بمدبر دبرها وقدرها وخصها بصفات وقدرات تتناسب وطبيعتها من حركة أو سكون، كذلك الشأن بالنسبة للأعضاء الحية فلو نظر الإنسان إلى أي عضو من أعضائه أو إلى أي جزء من أجزائه ظاهراً باطناً، بل لو نظر إلى أي صفة من صفاته أو أي حالة من حالاته التي تجري عليه قهراً كل هذه تشهد بما لا يقبل الشك أن هناك خالقاً لها محركها ومدبرها. وهذا ينطبق أيضاً على كل ما يدركه الإنسان من موجودات سواء عن طريق حواسه أوعن طريق إيمانه وعقيدته،

---

(1) الإمام الغزالي ـ المرجع السابق ص 147.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وعلى هذا يتقرر أن الله سبحانه وتعالى لا يتصور فيها العدم أو الغيبة عن أي ذرة أو جزئية في هذا الكون سواء في الدنيا أو في الآخرة فلا يغيب شيء عنه، وإلا لانهدمت السموات والأرض كلما انقطع نوره عنها. وهذا دليل على الجزم بوجوده قطعاً ظاهراً وباطناً فهو الظاهر الذي لا أظهر منه وهو الباطن الذي لا أبطن منه فسبحان من احتجب عن الخلق بنوره وخفي عليهم بشدة ظهوره. فهو المستدل على وجوده من سلسلة الموجودات وترتيبها سواء ما كانت في الدنيا أو هي قائمة في الآخرة كلها من صنعه وأنه سبحانه وتعالى بالنسبة إلى كل موجود هو الأول وأن الموجودات استفادت منه وأنه لم يستفد منها وأنه موجود بذاته عالم وعارف بمخلوقاته، محاسبهم في الآخرة بما عملوا فيما علموا به إذ إن كل معرفة تحصل للإنسان مضافة ومرقاة إلى معرفة الله إذ الغاية القصوى معرفة الله خالق الكون وعالم الغيب بقضائه وقدره بنظام شامل دقيق قدره وأحسن تقديره، فهو الأول والآخر منه المبدأ وإليه المرجع والمصير. ينفذ مشيئته كيف شاء وكما شاء إيجاداً وعدماً وإبقاءً وإفناءً. إنه على كل شيء قدير.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اليـوم الآخـر

الباب الثاني

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الأول

اليوم الآخر في القرآن

اليوم الآخر[1] يدخل هذا المفهوم في شمول عالم الغيب والإيمان به ركن من أركان الإيمان عامة وقد وصف الله تعالى المؤمنين بالغيب بأنهم هم على هدى من ربهم وأنهم مفلحون إذ قال:

﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾[2] أي يعترفون به ويثقون أنه الحق.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[3].

كما وصف الله تعالى، المؤمنين بالآخرة بأنهم أيضاً على هدى من ربهم فقال:

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[4].

فالآخرة الواردة في هذه الآية صفة للدار الآخرة وهي الدار المتأخرة

---

(1) آخر: يقابل به الأول، وآخر يقابل به الواحد، ويعبر بالدار الآخرة عن النشأة الثانية كما يعبر بالدار الدنيا عن النشأة الأولى نحو: ﴿وإن الدار الآخرة لهي الحيوان﴾ وربما ترك ذكر الدار نحو قوله: ﴿أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار﴾ وقد توصف الدار بالآخرة تارة وتضاف إليها تارة أخرى: ﴿وللدار الآخرة خير للذين يتقون ولأجرُ الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون﴾ وتقدير الإضافة دار الحياة الآخرة. الراغب الأصفهاني - «المفردات في غريب القرآن» ص 3، دار المعرفة.

(2) سورة البقرة، الآية: 3.

(3) سورة البقرة، الآية: 5.

(4) سورة البقرة، الآية: 4 - 5.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عن الدنيا، فالمؤمنون بالآخرة هم المتيقنون من وجودها وما فيها من الحساب وما يقتضيه هذا الحساب من ثواب أو عقاب. كما أن الإيمان بالآخرة يتحقق بمجرد الإيمان بالله بأنه هو خالق كل شيء وأنه خالق النشأة الأولى فمن آمن بخلق هذه النشأة لا يسوغ له أن ينكر النشأة الآخرة. التي يتم فيها البعث والنشور. بهذا الإيمان باليوم الآخر يقتضي معرفة مصدر هذا العالم ومصيره، هذه المعرفة هي التي تهيىء للإنسان إدراك حقيقته وحقيقة الدنيا وأنها ليست بدار قرار، وأن الإنسان فيها مرتحل إلى دار الآخرة، فمن علم هذا يستطيع أن يحدد أهدافه، ويسوي سلوكه ويعمل في الدنيا من أجل الآخرة، فيعمل لخيره وصلاحه وصلاح المجتمع، مراقباً أعمال نفسه سالكاً بها طريق الخير، عالماً أن الحياة دون غاية خيرة إنما هي حياة حيوانية، لهذا يتخذ الأسباب والذرائع التي تحقق له الهدف الأسمى، فيعمل بما يؤمر في شرع الله ويتجنب ما ينهى عنه، فيعمل لدنياه كأنه يعيش أبداً ويعمل لآخرته كأنه يموت غداً.

كل هذا ليحقق إنسانية الإنسان، التي حددت الشريعة الإسلامية معالمها. ولا شك أن هذا السلوك يقتضي الاستمرار في اتباع ما أمر الله به ونهى عنه. وهذا ما يجعله مؤمناً بأنه لم يخلق في هذه الدنيا عبثاً ولم يترك سدى. ومن البديهي أن من يؤمن بالله يؤمن باليوم الآخر، بمعنى أنه يؤمن بالبعث وبوعد الله ووعيده، بثوابه وعقابه. وهذا هو الاستدلال الواضح على وجوب اتباع الأمر والنهي، إذ ليس من المعقول أن من يؤمن بأوامر الله ونواهيه أن لا يؤمن بوعده ووعيده «فحكم صريح العقل بأن ذلك غير جائز، لأنه إن لم يقرن الأمر بالوعد والثواب، ولم يقرن النهي بالوعيد بالعقاب لم يتأكد الأمر والنهي، ولم يحصل المقصود، فثبت أنه لا بد من وعد ووعيد فعلمنا أن لا بد من تحقيق الثواب والعقاب، ومعلوم أن ذلك لا يتم إلا بالحشر والبعث، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب»[1].

ولا شك أن هذا متحصل بالعقل، لأن الله سبحانه وتعالى إذ خلق الإنسان، إنما خلقه لهدف عال، وغاية مثلى سامية، وهذا ما يتفق مع

(1) الإمام فخر الدين الرازي في تفسيره ـ من الأدلة العقلية على الميعاد.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حكمة الله سبحانه وتعالى من خلقه لهذا الكون وما فيه من حياة وما سخره الله للإنسان إذ جعله خليفة في الأرض لتحقيق الرسالة البشرية السامية رسالة الخير رسالة الدين الحنيف. هذه الرسالة التي تهدف إلى أحقاق الحق والسعادة والتي بموجبها يتم التكليف وتترتب المساءلة التي يترتب عليها الحساب ويتحقق تبعاً له الثواب والعقاب يوم الآخرة.

قال تعالى:

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾[1].

وقد أشار الله سبحانه وتعالى إلى خلق الإنسان وبعثه يوم القيامة، فقال:

﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ * أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾[2].

هذه الآيات وغيرها مما ورد في القرآن الكريم تؤكد أن الله سبحانه وتعالى خالق الكون وما فيه وأنه إذ خلق الإنسان أوجب عليه الإيمان بالعقيدة الإسلامية وما تقتضيه من اتباع أوامر الله واجتناب نواهيه، وهذا بالطبع يقتضي مساءلته عن تصرفاته وسلوكه من معاملات وعبادات وهذه المساءلة تقتضي وجود البعث الذي به يتحقق الحساب، فيتحقق الجزاء، سواء على اتباع الأمر أو مخالفة النهي.

هذه المقدمات متسلسلة ومتعلق بعضها ببعض فمتى صح بعضها صح كلها، فوجود لهذا الكون ومشاهداتنا لتغييراته يدل على أن الكون حادث، وحدوث العالم يدل على وجود محدث له، وهو الصانع، وهذا يدل على

---

(1) سورة المؤمنون، الآية: 115 ـ 116.

(2) سورة القيامة، الآية: 36 ـ 40.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وجود الأمر والنهي الذي يقتضي حتماً وجود الثواب والعقاب، يوم الآخرة.

هذا وقد ذكر الله اليوم الآخر في القرآن في آيات عديدة مشيراً إلى أهمية هذا اليوم وإلى أهمية الإيمان به وقد ربط اليوم الآخر بالإيمان بالله عز وجل وقرنه بما يفيد حصول المحاسبة عن الأعمال مما يتعين إدراك معرفة حقيقة هذا اليوم وتهيئة النفس في هذه الدنيا بما يخول لها ملاقاة هذا اليوم بكل طمأنينة وراحة مما تدعو هذه المعرفة ليوم الآخر لعمل البر والتزود بالتقوى، فمن تزود فلا خوف عليه قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1].

فالإيمان باليوم الآخر أمر إلزامي بل هو ركن من أركان العقيدة يقتضي حض الناس عليه بل ومقاتلة من لا يؤمن به لأن إنكاره لوجود الله بل كفر به قال تعالى:

﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾[2].

هذا والإيمان بالله يقتضي عبادته والعمل بأوامره ونواهيه. هذه العبادة هي الطريق بل هي أثر من آثار الإيمان باليوم الآخر فمن يؤمن باليوم الآخر يدرك أنه مساءل وبالتالي يدرك أنه مكلف، ومحاسب، على هذا التكليف لا سيما وأن اتباع التكليف يحقق السلوك الطيب والاستقرار والطمأنينة في هذه الحياة الدنيا التي تقتضي بطبيعتها وغايتها إقامة البر والعدل والإحسان. لهذا نجد أن الإيمان باليوم الآخر هو صمام الأمان لتحقيق السلوك الخير في الدنيا، فلولا الإيمان بالآخرة لعم الفساد في الدنيا وانتشر البغي ولأضحى

(1) سورة البقرة، الآية: 62.

(2) سورة التوبة، الآية: 26.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الناس في صراع وحشي بعيدين عن مكارم الأخلاق لا يردعهم رادع ولا يخيفهم سلطان. ولهذا حض القرآن على وجوب الإيمان بهذا اليوم وقد أكثر من ذكره وأعطى عنه صوراً عديدة تدل على هول هذا اليوم وما سيحدث فيه من أحداث مذهلة. كل هذا بأسلوب ترغيبي تارة وترهيبي تارة أخرى ليدرك الإنسان أعماله في هذه الدنيا ويراقب نفسه فيها ويخشى الله في تصرفاته طالما أنه محاسب يوم التلاقي. لهذا يكثر من عمل البر، قال تعالى مخاطباً عباده وواعظاً إياهم:

﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[1].

وقال تعالى في تحديد مفهوم البر:

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾[2].

وقال تعالى:

﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾[3].

هذا الاهتمام باليوم الآخر من قبل الله سبحانه وتعالى ووعظ الناس به يقتضينا معرفة حقيقة هذا اليوم ومفهومه مستدلين على ذلك بالقرآن الكريم لهذا يحسن بنا أن نستعرض بعض الآيات في مفاهيم اليوم الآخر وتسمياته المختلفة.

مفهوم اليوم الآخر:

المراد باليوم الآخر هو اليوم الذي تتبدل فيه الأرض غير الأرض فتشقق السماء وتتناثر النجوم وتتصادم الكواكب ويفنى العالم وتنتهي الحياة فيه وتبرز الناس للواحد القهار.

---

(1) سورة العنكبوت، الآية: 36.

(2) سورة البقرة، الآية: 177.

(3) سورة البقرة، الآية: 232.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قال تعالى:

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾[1].

وإذا كان فناء العالم إشارة إلى قيام اليوم الآخر وبعث الناس ومحاسبتهم على ما عملوا من خير أو شر، فمن غلب عليهم الخير أدخلهم الله الجنة ومن غلب شرهم على خيرهم أدخلهم النار، فإن هذا المفهوم لليوم الآخر سماه القرآن بأسماء مختلفة ومتعددة كل واحد منها يدل على هول هذا اليوم فقد ورد من أسماء اليوم الآخر يوم القيامة.

يوم القيامة:

قال تعالى:

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾[2].

والقيامة عبارة عن قيام الساعة المذكور في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ

---

(1) سورة إبراهيم، الآية: 48.

(2) سورة الزمر، الآية: 60. وردت القيامة في القرآن سبعين مرة والقيامة مصدر من قام يقوم والقيام في اللغة هو الوقوف والثبات وقد جاءت من هذا المعنى الإقامة بالمكان بمعنى لزومه والدوام فيه ومن معنى الثبات توسع في استعمال «قام» فاستعمل بمعنى طفق وقد جاء معنى «قام» في مواضع عدة من القرآن بمعنى حسّي محض، كما استعمل قام مقامه بمعنى ناب عنه ومع ذلك وردت آيات تفيد في استعمال لفظ قام المعنى المعنوي فقد ورد قوله تعالى: ﴿إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى﴾ [سورة سبأ، الآية: 46]. ويقول الإمام الزمخشري في تفسير القيام هنا أنه «القيام الذي لا يرد به المثول على القدمين ولكنه الانتصاب في الأمر والنهوض له بالهمة». وجاء القيام بمعنى الرعاية والمحافظة في موضعين من القرآن قال تعالى: ﴿وإن تقوموا لليتامى بالقسط﴾ [سورة النساء، الآية: 127].

وجاء القيام بمعنى العزم على الشيء وللتهيؤ له قال تعالى: ﴿وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا: ربنا رب السمٰوات والأرض لن ندعو من دونه إلٰهاً لقد قلنا إذاً شططاً﴾ [سورة الكهف، الآية: 14]. ومع ذلك فإن أكثر استعمال القيام بالمعنى الحسيّ استعمل في الصلاة والعبادة، وإذا تتبعنا الفعل ومزيده في القرآن نلاحظ أيضاً أنه استعمل في المعنويات. الراغب الأصفهاني - «المفردات في غريب القرآن» ص 417، دار المعرفة، بيروت.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ٱلسَّاعَةُ﴾[1]. ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[2] ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾[3] والقيامة أصلها ما يكون من الإنسان من القيام دفعة واحدة أدخل فيها الهاء تنبيهاً على وقوعها دفعة.

وإذا تتبعنا المعاني الواردة في القرآن لمدلول يوم القيامة نجد أنها جميعها تشير إلى أنها من الغيب أن جميع الأديان متفقة على وجوب الإيمان بها وأنها واقعة لا ريب فيها.

قال تعالى:

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾[4].

هذا ولا بد للإنسان من الاستعداد لها باعتبارها محققة بعدت أو قربت، وأن جميع أحداثها ووقائعها تدخل في نطاق ما وراء الطبيعة سواء ما يتعلق بالموت أو ما يخص الحساب أو العذاب أو الروح أو الجنة ولأهميتها فقد خص الله سبحانه وتعالى سورة خاصة باسمها وأطلق صفاتها على سور أخرى كسورة الواقعة. وسورة التغابن، وسورة الزلزلة، وسورة القارعة، بل أجرى القسم المؤكد باسمها بقوله: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[5].

هذا ويوم القيامة يسمى تسميات أخرى. فقد جاء مسنداً إلى الساعة مجازاً:

قال تعالى:

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾[6].

---

(1) سورة الروم، الآية: 12.
(2) سورة المطففين، الآية: 6.
(3) سورة الكهف، الآية: 36.
(4) سورة النساء، الآية: 87.
(5) سورة القيامة، الآية: 1.
(6) سورة الروم، الآية: 12.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كما جاء مسنداً هذا اليوم إلى الحساب قال تعالى:

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾[1].

وقال تعالى في إسناد هذا اليوم إلى الأشهاد:

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾[2].

وقال تعالى في إسناد هذا اليوم إلى الروح والملائكة: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾[3]. وقال تعالى في إسناد هذا اليوم إلى الناس:

﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[4]. أي يوم التوجه إلى رب العالمين كل هذه الصور والمعاني تعني اليوم الآخر.

ولأخذ صورة واضحة عن يوم القيامة يحسن تتبع اشتقاق الكلمة ومعناها في القرآن الكريم. فقد جاءت تفيد أحداثاً عديدة منها:

1 ـ الغاية:

قال تعالى:

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾[5].

---

(1) سورة إبراهيم، الآية: 41.

(2) سورة غافر، الآية: 51.

(3) سورة النبأ، الآية: 38.

(4) سورة المطففين، الآية: 6.

(5) سورة المائدة، الآية: 14.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقال تعالى:

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[1].

وقد تكون يوم القيامة ظرفاً للحشر أو ما في معناه:

قال تعالى:

﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾[2].

قال تعالى:

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾[3].

قال تعالى:

﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ﴾[4].

3 ـ القيامة ظرف تفيد قدرة الله سبحانه:

قال تعالى:

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[5].

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 55.

(2) سورة الإسراء، الآية: 97.

(3) سورة المؤمنون، الآية: 16.

(4) سورة الإنعام، الآية: 12.

(5) سورة الزمر، الآية: 67.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

4 ـ القيامة تفيد إقامة الميزان وإخراج الكتب والحساب ووفاء الأجور عن الأعمال:

قال تعالى:

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ كِتَـٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا * ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾[2].

وقال تعالى:

﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ﴾[3].

5 ـ القيامة تكون للأنباء عن الأعمال من قبل الله سبحانه العليم بكل شيء:

قال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَـٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[4].

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 185.

(2) سورة الإسراء، الآية: 13 ـ 14.

(3) سورة الأنبياء، الآية: 47.

(4) سورة المجادلة، الآية: 7.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

6 ـ القيامة تكون لبيان فيما اختلف فيه الناس

قال تعالى:

﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[1].

7 ـ القيامة يوم حمل الأوزار وما يدل على الذنب:

قال تعالى:

﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وِزْرًا * يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾[2].

قال تعالى:

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ﴾[3].

وقال تعالى:

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ﴾[4].

8 ـ القيامة يوم الحكم بين الناس:

وقال تعالى:

﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[5].

وقال تعالى:

---

(1) سورة النحل، الآية: 92.

(2) سورة طه، الآية: 100 ـ 101.

(3) سورة آل عمران، الآية: 180.

(4) سورة آل عمران، الآية: 161.

(5) سورة البقرة، الآية: 113.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾[1].

9 ـ القيامة يوم لا يفيد الاعتذار أو التذرع بالغفلة أو المجادلة عنهم في الدنيا:

قال تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾[2].

وقال تعالى:

﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾[3].

10 ـ يوم القيامة يوم تخاصم الكفار وتكفيرهم بعضهم بعضاً:

قال تعالى:

﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾[4].

وقال تعالى:

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾[5].

11 ـ يوم القيامة يوم شهيد على أهل الكتاب:

---

(1) سورة النساء، الآية: 141.
(2) سورة الأعراف، الآية: 172.
(3) سورة النساء، الآية: 109.
(4) سورة العنكبوت، الآية: 25.
(5) سورة الزمر، الآية: 31.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قال تعالى:

﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾[1].

12 ـ يوم القيامة يطلب فيه افتداء العذاب فلا يقبل:

قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[2].

13 ـ يوم القيامة يوم المكافأة والإثابة والطيبات لمن آمن في الحياة الدنيا:

قال تعالى:

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ﴾[3].

14 ـ يوم القيامة يوم يرفع المؤمنون مقامهم فوق الذين كفروا:

قال تعالى:

﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ﴾[4].

---

(1) سورة النساء، الآية: 159.

(2) سورة المائدة، الآية: 36.

(3) سورة الأعراف، الآية: 32.

(4) سورة البقرة، الآية: 212.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

15 ـ يوم القيامة يوم الأمن للذين آمنوا ويوم خزي وعذاب للذين كفروا:

قال تعالى:

﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ * وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾[2].

وقال تعالى:

﴿ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾[3].

16 ـ يوم القيامة يوم العذاب لمن يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض، أو لمن يكتم ما أنزل الله من الكتاب:

قال تعالى:

﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾[4].

وقال تعالى:

---

(1) سورة فصلت، الآية: 40.

(2) سورة القصص، الآية: 41 ـ 42.

(3) سورة الحج، الآية: 9.

(4) سورة البقرة، الآية: 85.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1].

17 ـ يوم القيامة يوم السوء والخزي على الكافرين وعلى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة وجهنم مثوى لهم:

قال تعالى:

﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[2].

وقال تعالى:

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾[3].

18 ـ يوم القيامة يعتبر الخسران فيه خسراناً للنفس والأهل:

قال تعالى:

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[4].

19 ـ يوم القيامة يسمى بيوم الدين:

وقد جاءت هذه التسمية في القرآن في اثني عشر موضعاً وقد تشعبت كلمة الدين في معناها، فالدين يعتبر القهر والغلبة، والدين الإسلام، وقد دنت به، والدين العبادة، والدين الملة والورع، والدين العادة، والدين

(1) سورة البقرة، الآية: 174.
(2) سورة النحل، الآية: 27.
(3) سورة الزمر، الآية: 60.
(4) سورة الزمر، الآية: 15.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الحال، والدين القضاء، والدين السلطان والملك والحكم، والسيرة والتدبير، والدّين ما له أجل، والدين الموت. واشتقت منها الديان القهار، والقاضي، والحاكم والسائس، والحاسب، والمجازي الذي لا يضيع عملاً بل يجزي بالخير والشر ودنته أدينه ملكته. وتورد دائرة المعارف الإسلامية تحت لفظ دين أنها:

1 ـ دين تفيد معنى الحكم.

2 ـ دين تفيد معنى العادة والطريقة.

3 ـ دين تفيد معنى Religion بمعنى الديانة.

ويبدو لنا أن من الدينار يأتي معنى العادة وهي مجموعة من الطقوس والعادات وهذه في الأصل تفيد معنى الخضوع التي منها انتقل إلى معنى العبادة في الديانة.

قال تعالى:

﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[2].

فكلمة دين إذن أدت إلى معانٍ كثيرة في القرآن لاحظنا أن معانيها متعددة فهي إلى جانب أنها تفيد معنى الحكم والجزاء في سبعة مواضع كقوله تعالى:

﴿وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾[3].

وقوله تعالى:

---

(1) سورة الأعراف، الآية: 29.

(2) سورة العنكبوت، الآية: 65.

(3) سورة الذرايات، الآية: 6.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾[1].

وقوله تعالى:

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾[2]. وكذا في سورة النور الآية 25. وكذا في سورة التين الآية: 7. فقد جاءت كلمة الدين أيضاً تفيد المحاسبة والجزاء في موضعين من القرآن.

قال تعالى:

﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾[3].

وقال تعالى:

﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾[4]. أما فيما تفيد كلمة يوم الدين القيامة فقد وردت في قوله تعالى:

﴿وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾[5].

وقال تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾[6].

وقوله تعالى:

﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ * يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾[7].

وكذا قوله: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ * وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾[8].

وكذا في سورة الانفطار الآية 17 و18 وكذا في سورة المطففين الآية

---

(1) سورة الانفطار، الآية: 9.
(2) سورة الماعون، الآية: 1.
(3) سورة الصافات، الآية: 53.
(4) سورة الواقعة، الآية: 86.
(5) سورة الصافات، الآية: 20.
(6) سورة المعارج، الآية: 26.
(7) سورة الانفطار، الآية: 14 ـ 15.
(8) سورة الذاريات، الآية: 5 ـ 6.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

11، وكذا في سورة المدثر الآية: 46، وكذا في سورة الواقعة الآية 56، وكذا في سورة الحجر الآية 35 إلخ..

20 ـ يوم القيامة يوم الحساب والمساءلة ويوم طلب الغفران حيث ينشر كتاب الإنسان له شاهداً على أعماله فيحاسب بها:

قال تعالى:

﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾[1]. وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾[2].

21 ـ يوم القيامة يوم لا يشفع فيه للإنسان نسب ولا حسب ولا مال ولا بنون وإنما تجزى كل نفس بما كسبت.

قال تعالى:

﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ﴾[3]. وقال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾[4].

وقال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾[5].

وقال تعالى:

---

(1) سورة الإسراء، الآية: 13.

(2) سورة إبراهيم، الآية: 41.

(3) سورة الممتحنة، الآية: 3.

(4) سورة الشعراء، الآية: 88.

(5) سورة لقمان، الآية: 33.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾[1].

22 ـ يوم القيامة يرد بالنسبة للكافرين مورد الاستفهام الإنكاري وظرفاً لاستفهام تعجبي عن حال الكفار.

قال تعالى:

﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾[2].

وقال تعالى:

﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾[3].

هذه بعض الصور والوقائع أو الأحداث أو الحالات عن يوم القيامة، ولا يسعنا في هذا البحث أن نستتبع جميع الصور التي وردت في القرآن إذ تكاد لا تخلو سورة من التصوير لهذا اليوم، أو الإشارة إليه، أو الحديث عنه. فقد تكرر لفظ يوم القيامة في القرآن كما قلنا سبعين مرة وفي جميع استعمالات هذا اليوم إنما استعمل للدلالة على أهميته وامتداد زمانه، فهو ممتد إلى أن يحق الحق فيدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار. فيوم القيامة وما أوتي به من معانٍ حسية أو معانٍ نفسية أو معنوية كلها تدخل تحت هذا المدلول وهو يوم القيامة سواء سمي بيوم الحشر أم يوم البعث أم يوم الحساب أم يوم الدين والحكم أم مجازاة الناس بما عملوا أم في رفعتهم وإخزائهم، كلها ترمي إلى غرض واحد، وهو إعلام الناس أن ما يعملونه في حياتهم الدنيا محصىً عليهم يعلمه الله وهو الشهيد على كل شيء وأنه يستم لقاء الخلق بربهم جل شأنه في هذا اليوم قال تعالى:

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَـٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[4].

فالقيامة إذن لا بد من قيامها بأمر الله وتقديره جل شأنه حيث يقول الله

---

(1) سورة غافر، الآية: 17.

(2) سورة القيامة، الآية: 6.

(3) سورة يونس، الآية: 60.

(4) سورة البقرة، الآية: 223.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كن فيكون قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾[1].

كل هذا من أجل أن يدرك الإنسان أن دار الدنيا ليست بدار البقاء إنما هي دار ارتحال فيعمل فيها دون تهاون أو إهمال أو انصراف عن أوامر الله أو نواهيه فيعبد الله ويحسن للناس ويعدل في تعامله معهم ويعلم أن المرء مجازى بما كسبت يداه فيسأل عن أعماله (ولا تزر وازرة وزر أخرى) كما ويعلم أنه ميت، فيدخر من دنياه لآخرته عملاً يرضى به ربه ويدرك أن يوم القيامة آتٍ لا ريب فيه، حيث يرفع الله فيه أقواماً بأعمالهم الصالحة ويخفض أقواماً بأعمالهم السيئة فما على الإنسان إذن إلا أن يستجيب لربه إذ لا مرد لأمر الله قال تعالى:

﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ﴾[2].

هذا بالنسبة لاستعمال لفظ يوم القيامة ومع ذلك نجد أن القرآن الكريم سمى هذا اليوم أي يوم القيامة بأسماء أخرى تدل عليه منها الساعة. فسميت القيامة بالساعة.

الساعة:

سميت القيامة الساعة في أربعين موضعاً في القرآن في آيات عديدة من السور، حيث استعملت الساعة في القرآن في ثمانية مواضع بمعنى الجزء من النهار والليل.

قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا

(1) سورة الأنعام، الآية: 73.

(2) سورة الشورى، الآية: 47.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يَسْتَقْدِمُونَ﴾[1]. وقد وردت الساعة في مكان واحد من القرآن بمعنى الجزء اليسير من الزمن أو الزمن على وجه الإطلاق قال تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾[2].

هذا أما عن استعمال القيامة بمعنى الساعة[3] غير الزمن فقد وردت في آيات عدة بمدلولات ومعانٍ مختلفة وهي في جميع الأحوال مقدمة من

---

(1) سورة الأعراف، الآية: 34.

(2) سورة التوبة، الآية: 117.

(3) جاء في «اللسان» أن الساعة بالمعنى الزمني تطلق في الأصل بمعنيين:
أحدهما: أن تكون عبارة عن أربعة وعشرين جزءاً هي مجموع اليوم والليلة.
الثاني: أن تكون عبارة عن جزء قليل من النهار والليل.
ويقول الراغب الأصفهاني: الساعة جزء من أجزاء الزمان ويعبر به عن القيامة قال: ﴿اقتربت الساعة﴾ [سورة القمر، الآية: 1]، ﴿ويسألونك عن الساعة﴾ [سورة النازعات، الآية: 42] ﴿وعنده علم الساعة﴾ [سورة الزخرف، الآية: 85] تشبيهاً بذلك بشرعة حسابه كما قال ﴿وهو أسرع الحاسبين﴾ [سورة الأنعام، الآية: 62] أو لما نبه عليه بقوله: ﴿كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلاّ عشية أو ضحاها﴾ [سورة النازعات، الآية: 46] ﴿ولم يلبثوا إلاّ ساعة من نهار﴾.
والثانية: الوقت القليل من الزمان، وقيل: الساعات التي هي القيامة ثلاث:
الساعة الكبرى: وهي بعث الناس للمحاسبة.
الساعة الوسطى: وهي موت أهل القرن الواحد وذلك ما روي أنه رأى عبد الله بن أنيس فقال: «إن يطل عمر هذا الغلام لم يمت حتى تقوم الساعة» فقيل: إنه آخر من مات من الصحابة.
والساعة الصغرى: وهي موت الإنسان فساعة كل إنسان موته وهي المشار إليها بقوله: ﴿قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة﴾ [سورة الأنعام، الآية: 31]، ومعلوم أن هذه الحسرة تنال الإنسان عند موته لقوله: ﴿وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجر قريب فأصدق﴾ [سورة المنافقون، الآية: 10] وعلى هذا قوله: ﴿قل أرأيتم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة﴾ [سورة الأنعام، الآية: 40].
وروى أنه كان إذا هبت ريح شديدة تغير لونه عليه السلام فقال: «تخوفت الساعة» وقال: «ما أمدُّ طرفي ولا أغضها إلا وظن أن الساعة قد قامت» يعني موته. ويقال: عاملته مساوعة نحو معاومة ومُشاهرةً، وجاءنا بعد سوع من الليل وسُوَاع أي بعد هدءٍ، وتصوّر من الساعة الإهمال فقيل: أسعت الإبل أسيعُها وهو ضائع سائع، وسُوَاع اسم صنم. قال: ﴿ودّاً ولا سُواعاً﴾ [سورة نوح، الآية: 23]. «المفردات في غريب القرآن» ص 248.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مقدمات اليوم الآخر. وهي تتصف بصفات وهي:

1 ـ الساعة بما يفيد قرب وقوعها:

قال تعالى:

﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾[1].

2 ـ الساعة بما يفيد مجيئها فجأة:

قال تعالى:

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾[2].

وقال تعالى:

﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾[3].

3 ـ الساعة والسؤال عنها علمها وميعادها:

الساعة من عالم الغيب لا يعلم حدوثها إلا الله سبحانه وتعالى فهي من العلوم التي خص الله بها قال تعالى:

﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾[4].

وقال تعالى:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا

---

(1) سورة النحل، الآية: 77.

(2) سورة الأنعام، الآية: 31.

(3) سورة الحج، الآية: 55.

(4) سورة الأحزاب، الآية: 63.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

فالسؤال عن الساعة من قبل الكفار إنما هو في معرض الشك في حدوثها أو تحديد وقتها وتكذيبهم بها فقد جاء الجواب في الرد عليهم وثبوت مجيئها وإنذارهم وتخويفهم بها لما سيحدث فيها من أهوال. قال تعالى مجيباً ومثبتاً مجيئها:

﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[2].

4 ـ الساعة واقترانها بالزلزلة:

وردت الساعة مضافاً إليها الزلزلة كدليل على هولها وما سيحدث فيها من أحداث عظيمة مخيفة للترهيب بهذا اليوم وللحض على التزود في الدنيا بالأعمال الصالحة لملاقاة هذا اليوم العظيم قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾[3].

5 ـ الساعة ظرف مع تقوم للحساب والجزاء:

قال تعالى:

---

(1) سورة الأعراف، الآية: 187.

(2) سورة الأنعام، الآية: 40.

(3) سورة الحج، الآية: 1 ـ 2.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾[2]

وقال تعالى:

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ﴾[3].

وهكذا نجد أن الساعة استعملت في القرآن الكريم في كثير من الآيات كلها تهدف إلى بيان حقيقتها والخوف منها وأنها واقعة لا ريب فيها وما على الناس إلا أن يستعدوا لها فهي جاءت بصيغة الترهيب وأن في وقوعها تحدث وقائع رهيبة ومروعة فما هي إذن فحوى هذه الساعة وما هي شرائطها؟ هذا ما سنحاول بحثه.

الساعة حقيقتها وأشراطها:

المراد بالساعة في بحثنا هذا وبما أشار إليه القرآن الكريم أنها الحياة الثابتة، بأنظمتها ومدلولاتها ووقائها وأحداثها وهذه لا تتم إلا بعد فناء عالم الحياة الأولى حيث تنتهي بمجرد قيام الساعة ولكن متى تقوم على وجه التحديد ذلك ما انفرد بعلمه سبحانه وتعالى وحده والسؤال الذي يطرح نفسه هل إن الساعة لا بد آتية، وأنها تحديد ليوم تجزى كل نفس بما تسعى أو تجزى بما كسبت؟ لا شك أن قيامها ثابت بنصوص قاطعة وأن ابتداءها يتم حيث تنتهي الحياة الدنيا وتتبدل الأرض غير الأرض تبدلاً كلياً والسموات تنفطر والكواكب تنتثر قال تعالى:

---

(1) سورة الجاثية، الآية: 27.

(2) سورة غافر، الآية: 46.

(3) سورة الروم، الآية: 55.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾[1].

وقال تعالى مشيراً إلى الأحداث التي تتم بوقوعها فقال:

﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾[2].

وقوله تعالى:

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ * وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ * وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ * وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾[3].

فمجيء الساعة مقترن إذن بتبدل الأرض والسموات وانتهاء نظام الحياة الدنيا، أما متى؟ فإن هذا السؤال لا جواب عليه لأن الموضوع بحد ذاته من أمور الغيب التي أخفاها الله على عباده وهذا ثابت بنص من القرآن بمجيئها إذ هو محقق لكنه يأتي بغتة قال تعالى:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[4].

فمعرفة استقرارها أي مجيئها وبلوغ مداها أمر لا يعرفه إلا سبحانه وتعالى ومع ذلك فقد أشار الله عز وجل إلى قربها بقوله تعالى:

﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ * وَإِن يَرَوْا ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾[5].

---

(1) سورة طه، الآية: 15.

(2) سورة الأنبياء، الآية: 104.

(3) سورة الانفطار، الآية: 1 ـ 5.

(4) سورة الأعراف، الآية: 187.

(5) سورة القمر، الآية: 1 ـ 2.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقال تعالى:

﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾[1].

هذا وإذا كانت الساعة غير معروف زمن مجيئها، وعلى الرغم من أنها قريبة فإنه مع ذلك فقد وجد لها أمارات وهي الدلائل على مجيئها ويعبر عنها بأشراط الساعة وهذه الدلائل هي مجموعة أمارات تدخل أيضاً في الأمور الغيبية فهي من أنباء الغيب وهي بمثابة الإنذار أو الحض على وجوب الإيمان بالساعة هذه الأشراط أشار إلى وجودها وظهورها القرآن قال تعالى:

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾[2].

أشراط الساعة:

علمنا أن القرآن قد أشار إلى أشراط الساعة لكنه لم يحدد زمنها ووقتها أو موعدها فهي مما خفي على الناس كافة بما فيهم الأنبياء والرسل، فليس لأحد مهما كان شأنه أن يعلم عنها شيئاً أو يحدد عمراً لهذه الدنيا من حيث الابتداء والانتهاء فمعرفة وقت قيام الساعة إذن مجهول لا يعرفه إلا الله سبحانه وتعالى كما أن زمن وقوع أشراطها مجهول أيضاً. هذا وإذا كان زمن وقوع أشراط الساعة مجهولاً بيد أن أشراطها معروفة من الدين بالضرورة فلا يجوز إنكارها وإن كانت مما تدخل أيضاً في شمول الأمور الغيبية.

إذن فموعد قيام الساعة أو زمن وقوع أشراطها لا يعلمه إلا الله.

قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾[3].

---

(1) سورة الأحزاب، الآية: 63.

(2) سورة محمد، الآية: 18.

(3) سورة الملك، الآية: 25 ـ 26.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فأشراط الساعة أو علاماتها إنما هي مجموعة من أنباء الغيب التي ستحدث قبل قيام الساعة يقيناً للمؤمنين وتنبيهاً للضالين وبياناً للشاكين وحجة على الجاحدين كي يتعظوا ويؤمنوا وهي ثابتة بالخبر المتواتر أو بالدليل اليقيني القاطع من القرآن. هذه الأمارات عديدة سواء كانت من العلامات الصغيرة أو من العلامات الكبيرة وفي جميع الأحوال سنعرض واحدة من هذه العلامات ونجملها فيما يلي:

- بعثة رسول الله ﷺ باعتباره خاتم الأنبياء والمرسلين وهو آخر نبي وأن الساعة تليه وتأتي بعده وليس بينه وبينها أي نبي آخر وليس من الضروري معرفة زمن مجيئها إذ العلم بزمن مجيئها منوط بمعرفة الله سبحانه وتعالى، هذه الأمارة ثابتة بالحديث الصحيح إذ روي عن أنس أن النبي ﷺ قال:

«بعثت أنا والساعة كهاتين، وأشار بالسبابة والوسطى»[1].

هذا والمتتبع لآيات القرآن يجد أن يوم الآخر سمي بيوم البعث قال تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[2].

---

(1) رواه البخاري ومسلم والترمذي ورواه ابن ماجه عن أبي هريرة. قال: قال رسول الله ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهاتين وجمع بين إصبعيه» سنن ابن ماجه ج 2، ص 1341. دار إحياء التراب العربي.

(2) سورة الروم، الآية: 56.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثاني:
البعث ويوم القيامة

البعث

هذه التسمية «يوم البعث» وردت مرتين في موضع واحد في سورة الروم الآية: 56 كما هو ظاهر من الآية المذكورة في الفصل السابق.

1 ـ المرة الأولى تفيد الغاية ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ﴾[1].

2 ـ والمرة الثانية تفيد الابتداء والإخبار مع التعجب من الجهل.

﴿فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون﴾.

هذا وقد ورد لفظ البعث في القرآن بمعانٍ مختلفة[2] ذكرها على وجه

---

(1) سورة الروم، الآية: 56.

(2) أ ـ البعث بمعنى الإلهام: قال تعالى: ﴿فبعث الله غراباً يبحث في الأرض﴾ [سورة المائدة، الآية: 31] أي الهم الله غراباً.

ب ـ البعث بمعنى الإحيار في الدنيا، قال تعالى: ﴿ثم بعثناكم من بعد موتكم﴾ [سورة البقرة، الآية: 56]. وقوله تعالى: ﴿فأماته الله مائة عام ثم بعثه﴾ [سورة البقرة، الآية: 259].

جـ ـ البعث بمعنى اليقظة من النوم قال تعالى: ﴿ثم يبعثكم فيه﴾ أي في النوم، [سورة الأنعام، الآية: 60]، ﴿ليقضي أجل مسمى﴾ [سورة الأنعام، الآية: 60].

د ـ البعث بمعنى التسلط قال تعالى: ﴿بعثنا عليكم عباداً أولي بأس شديد﴾ [سورة الإسراء، الآية: 5] أي سلطاناً عليكم عباداً لنا.

هـ ـ البعث بمعنى إرسال الرسول قال تعالى: ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً﴾ [الجمعة: 2]. يعني أرسل رسولاً وقال تعالى مثلها: ﴿ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم﴾ [سورة البقرة، الآية: 129] كما قال تعالى: ﴿فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة﴾ [سورة الكهف، الآية: 19] يعني أرسلوا. =

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التفصيل الراغب الأصفهاني[1].

كما فرق بين البعث والإرسال[2] فالإرسال فيه معنى السهولة، والبعث فيه معنى القوة وفيه معنى الحركة العنيفة التي تكون من المبعوث لا مجرد الانقياد والطاعة لأمر الباعث. وقد ورد هذا الفعل في اثنين وخمسين موضعاً من القرآن الكريم. وهو في كل هذه الآيات واقع على إحياء ومتوقع منهم الحركة العنيفة فهم أنبياء قال تعالى:

= والبعث بمعنى النصب والبيان قال تعالى: ﴿فابعثوا حكماً من أهله﴾ [سورة النساء، الآية: 35]، يعني انصبوا حكماً. وكقوله تعالى: ﴿ابعث لنا ملكاً﴾ [سورة البقرة، الآية: 246]. وبين ذكره. وقال تعالى: ﴿إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً﴾ [سورة البقرة، الآية: 246]. يعني قد نصب وبين موضعه.

ز ـ البعث بمعنى النشور من القبور قال تعالى: ﴿وإن الله يبعث من في القبور﴾ [سورة الحج، الآية: 7]. يعني ينشر. الحسين بن محمد الدمغاني ـ الوجوه والنظائر ص 73، دار العلم للملايين، بيروت.

(1) بعث: أصل البعث إثارة الشيء وتوجيهه يقال: بعثته فانبعث. ويختلف البعث بحسب اختلاف ما عُلِّق به فبعثت البصير أثرته وسيرته، وقوله عزّ وجلّ: ﴿والموتى يبعثهم الله﴾ [سورة الأنعام، الآية: 36]، أي يخرجهم ويسيرهم إلى يوم القيامة، ﴿يوم يبعثهم الله جميعاً﴾ [سورة المجادلة، الآية: 6]، وكقوله تعالى: ﴿زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير﴾ [سورة التغابن، الآية: 7]. وكقوله تعالى: ﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلاّ كنفس واحدة﴾ [سورة لقمان، الآية: 28]. فالبعث ضربان: بشرى كبعث البصير وبعث الإنسان في حاجة، وإلهي وذلك ضربان: أحدهما إيجاد الأعيان والأجناس والأنواع عن ليس وذلك يختص به الباري تعالى ولم يُقْدِرْ عليه أحداً. والثاني: إحياء الموتى وقد خصّ بذلك بعض أوليائه كعيسى ﷺ وأمثاله، ومنه قوله عزّ وجلّ. ﴿فهذا يوم البعث﴾ [سورة الروم، الآية: 56]، يعني يوم الحشر وقوله عزّ وجلّ: ﴿فبعث الله غراباً يبحث في الأرض﴾ [سور المائدة، الآية: 31] أي قبضه: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً﴾ [سورة النحل، الآية: 36] نحو ﴿أرسلنا رسلنا﴾ [سورة المؤمنون، الآية: 44]. وقوله تعالى: ﴿ثم بعثناكم لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمداً﴾ [سورة الكهف، الآية: 12] وذلك إثارة بلا توجيه إلى مكان، وقوله: ﴿ويوم نبعث في كل أمة شهيداً﴾ [سورة النحل، الآية: 84]. وقوله: ﴿قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم﴾ [سورة الأنعام، الآية: 65] وقال عزّ وجلّ: ﴿فأماته الله مائة عام ثم بعثه﴾ [سورة البقرة، الآية: 259]. وعلى هذا قوله عزّ وجلّ ﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه﴾ [سورة الأنعام، الآية: 60]. والنوم من جنس الموت فجعل التوفي فيهما والبعث منهما سواء وقوله عزّ وجلّ: ﴿ولكن كَرِهَ الله انبعاثهم﴾ [سورة التوبة، الآية: 46]، أي توجههم ومضيّهم، الراغب الأصفهاني ـ «المفردات في غريب القرآن» ص 52.

(2) رسل: أصل الرسل الانبعاث على التؤدة ويقال: ناقة رَسْلَة سهلة السير وإبل مراسيل منبعثة انبعاثاً سهلاً ومنه الرسول المنبعث وتصدر منه تارة الرفق فقيل على رسلك إذا أمرته بالرفق وتارة الانبعاث فاشتق منه الرسول. الأصفهاني ـ المرجع السابق ص 195.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾[2].

وقال تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَـٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ﴾[3].

وهكذا تجد من سياق هذه الآيات أن لفظ البعث فيها يدل على الحركة العنيفة. وأنها واقعة على أحياء، ومع ذلك فإن فعل بعث ورد في القرآن واقعاً على غير حي في آية واحدة بدليل قوله تعالى:

﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾[4].

وفي هذه الآية ما يدل على القدرة من خلال البعث الذي فيه معنى القوة.

هذا والمتتبع للآيات في القرآن الكريم يلاحظ في معنى البعث من الحركة الشديدة سواء كان اللفظ فعلاً أو مصدراً أو اسم مفعول فإنه يفيد خروج الخلق من قبورهم يوم القيامة وأن فعل بعث جاء في واحد وعشرين موضعاً كقوله تعالى:

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾[5].

وكقوله تعالى:

---

(1) سورة البقرة، الآية: 213.

(2) سورة الأعراف، الآية: 167.

(3) سورة الكهف، الآية: 19.

(4) سورة الأنعام، الآية: 65.

(5) سورة الأنعام، الآية: 36.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

﴿قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[1] وكذا الآية 36 من سورة الحجر والآيات (21، 38، 84، 89)، من سورة النحل، والآيات (15، 33) من سورة مريم.

وكذا قوله تعالى:

﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ﴾[2].

وقوله تعالى:

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾[3].

وقوله تعالى:

﴿وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[4].

وقوله تعالى:

﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾[5].

وقوله تعالى:

﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾[6].

وكذا في سورة النمل الآية (65)، وفي سورة الصافات الآية (144) وفي سورة ص الآية (79)، وفي سورة المجادلة الآية (6 و18).

وقال تعالى:

---

(1) سورة الأعراف، الآية: 14.

(2) سورة الحج، الآية: 7.

(3) سورة المؤمنون، الآية: 16.

(4) سورة المؤمنون، الآية: 100.

(5) سورة الشعراء، الآية: 87.

(6) سورة يس، الآية: 52.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾[1].

هذا وجاء لفظ البعث مصدراً في أربعة مواضع قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ﴾[2].

وكذا في سورة الروم الآية (56) مرتين وكذا في سورة لقمان قوله تعالى:

﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾[3].

هذا وجاء لفظ البعث في صيغة اسم المفعول في تسعة مواضع من القرآن.

قال تعالى:

﴿وَقَالُوٓاْ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾[4].

وقال تعالى:

﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[5].

وقال تعالى:

---

(1) سورة التغابن، الآية: 7.

(2) سورة الحج، الآية: 5.

(3) سورة لقمان، الآية: 28.

(4) سورة الأنعام، الآية: 29.

(5) سورة هود، الآية: 7.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾[1].

وكذا في سورة الإسراء الآية (98)، وفي سورة المؤمنون الآية (37 و82)، وفي سورة الصافات الآية (16)، وفي سورة الواقعة الآية (47)، وفي سورة المطففين الآية (4).

وهكذا نجد أن لفظ البعث سواء جاء بصيغة الفعل أو بصيغة اسم الفاعل أو اسم المفعول أو جاء مصدراً. أو جاء على أحياء أو جاء على غير حيّ، أو جاء حكاية لتعجب الكفار من أمر البعث أو جاء رداً على الكفر لعدم إيمانهم بأن الحياة ستدب في النفوس والأجسام بعد أن أضحت عظاماً ورفاةً بعد موت أصحابها، أو رداً على استجهالهم البعث إنكاراً وكفراً. ففي جميع هذه الحالات أو الحالات التي عرضها القرآن في مفهوم البعث سواء كان بمعنى القيامة أو بمعنى اليوم الآخر أو غيره، فإن إكثار القرآن من ذكر البعث إنما يدل على أهمية هذا اليوم، وعلى هول ما سيقع فيه من أحداث، فضلاً عن الحقائق التي اعتنى بها الدين الإسلامي في أصوله وعقيدته، إنما ترمي إلى التربية الخلقية للإنسان وتحضيره على الوجه الذي يحقق له في الحياة الدنيا السعادة والاطمئنان لنفسه أو لغيره تبعاً للإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وقضائه خيره وشره باليوم الآخر، وبشموله لمفهوم الألوهية والربوبية لرب العالمين خالق كل شيء هذا الإيمان هو الذي يفرض على الإنسان إدراك سلوكه ومعرفة تصرفاته، وأن ما فيها من خير أو شر محاسب عليه طالما أنه مؤمن باليوم الآخر يوم البعث، وبهذا يخلص إلى أنه والناس أجمعين لم يتركوا سدى وأن المرء كسب رهين. بهذا الإيمان تستقيم حياة الإنسان في اتجاهها الصحيح عبادة وسلوكاً وتربية وتعاملاً وبهذا يعلم الإنسان لماذا اهتم القرآن بقضية البعث أو الدار الآخرة كما ويعلم أن يوم الدين حق، وأن الحساب حق، وأنه مساءل في الآخرة عن عمله في الدنيا أي عما عمل فيما علم، وأن الثواب والعقاب حق، وهو الأثر للمحاسبة ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[2]. وهكذا

(1) سورة الإسراء، الآية: 49.

(2) سورة النور، الآية: 24.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فإن حياة الإنسان في الدنيا طالت أم قصرت لا بدّ أن يجازي في الآخرة على ما كان يفعله فيها سواء كان مؤمناً أو كافراً، عاصياً أو طائعاً، محسناً أو مسيئاً، صالحاً أو طالحاً، خيراً أو شريراً، سعيداً أو شقياً. فإنه لا بدّ إذن ملاقٍ ليوم الحساب مستوفٍ ما وعد الله به، خالد في شقائه أو سعادته قال تعالى:

﴿فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ * فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ * وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾[2].

قال تعالى:

﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[3].

لقد اهتم القرآن بالبعث اهتماماً عظيماً ويبدو أن هذا الاهتمام إنما هو بمثابة التحريض والحض للإنسان على الاستعداد لهذا اليوم بالتزود بالتقوى، طالما أن الإنسان لم يترك سدى، وأن الله سبحانه وتعالى أنزل شريعته وزود الناس بعقيدة تستقيم بها حياتهم سواء ما يتعلق بالعبادات، أو المعاملات، كما أنه لم يتركهم دون ترشيد أو تعليم، فأرسل الرسل مبشرين ومنذرين ليعلموهم أمور دينهم الحنيف، فضلاً عما أنعم الله على عباده بإنزال القرآن

---

(1) سورة الشورى، الآية: 7.

(2) سورة هود، الآية: 105 ـ 108.

(3) سورة الجاثية، الآية: 26.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على رسوله محمد ﷺ ليكون مناراً وهادياً للناس جميعاً حيث اشتمل على كل شيء من أمور الدين والدنيا فحدد الحلال والحرام بأحكام واضحة كما بين أسس العبادات والمعاملات وبهذا يكون قد زود الإنسان بما يحتاجه لعمل الخير في الدنيا. ولم يعد له أي عذر في عدم الاستجابة لما أمر الله به أو نهى عنه. من هذا المنطلق تتوجب المساءلة بدليل النص قال تعالى:

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1].

فالله سبحانه وتعالى إذ خلق الناس فهو مسائلهم يوم القيامة، ومحق عليهم الثواب والعقاب تبعاً لأعمالهم. وبهذا يكون الجزاء أثراً من آثار المساءلة. هذا وإذا كانت المساءلة لا بدّ قائمة فما هو زمنها فهل هو محدد ومتى وأين؟ الجواب على ذلك غير وارد بل غير معلوم فهو يدخل في شمول الغيبيات التي لا يعلمها إلا الله فالإنسان مسؤول عن أعماله ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾[2].

وقال تعالى:

﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾[3] فمن عمل خيراً يلق ثوابه، ومن عمل شراً يلق عقابه، وفي هذا إشارة إلى المحاسبة يوم القيامة وهذا منتهى العدل قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾[4] وهذا يشير إلى أن حياة الإنسان في الدنيا محدودة فيعلن أنها مؤقتة وذائقة للموت قال تعالى:

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[5].

---

(1) سورة الحجر، الآية: 92 ـ 93.

(2) سورة الطور، الآية: 21.

(3) سورة إبراهيم، الآية: 51.

(4) سورة غافر، الآية: 17.

(5) سورة آل عمران، الآية: 185.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقال تعالى مخاطباً رسوله:

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾[1]

وقال تعالى:

﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾[2] فحياة الإنسان إذن نهايتها الموت، على أن الموت لا يعني الفناء المطلق والنهائي بحيث لا تعاد للإنسان الحياة بل لا بدّ من البعث يوم القيامة حيث يجمع الله الناس في يوم لا ريب فيه وأنه لا شبهة في ذلك مطلقاً وأنه ثابت بالدليل القطعي فمن ينكر يوم القيامة وينكر البعث فقد أنكر الله القادر على كل شيء. بهذا يكون من صنف الدهريين الذين قال الله تعالى على لسانهم:

﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾[3].

«هذا الصنف ينكر البعث ويعتقد أن تواجد الحياة إنما كان بسبب حركات الأفلاك الموجبة لامتزاجات الطبائع، وإذا وقعت تلك الامتزاجات على وجه خاص حصلت الحياة، وإذا وقعت على وجه آخر حصل الموت، فالموجب للحياة والموت تأثيرات الطبائع وحركات الأفلاك، هذه الطائفة جمعت بين إنكار الإله وبين إنكار البعث والقيامة»[4] هؤلاء رد الله عليهم بقوله:

﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[5]. فالله سبحانه وتعالى ذكر الاستدلال بحدوث الحيوان والإنسان على وجود الفاعل الحكيم في القرآن مراراً

---

(1) سورة الزمر، الآية: 30.

(2) سورة السجدة، الآية: 11.

(3) سورة الجاثية، الآية: 24.

(4) الإمام الرازي في تفسيره، ج 27، ص 270.

(5) سورة الجاثية، الآية: 26.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وأطواراً، ولما ثبت أن الإحياء من الله تعالى وثبت أن الإعادة مثل الإحياء الأول، وثبت أن القادر على الشيء قادر على مثله، ثبت أنه تعالى قادر على الإعادة وثبت أن الإعادة ممكنة في نفسها، وثبت أن القادر الحكيم أخبر عن وقت وقوعها فوجب القطع بكونها حق في قوله تعالى:

«ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه».

معنى ذلك أن كونه تعالى عادلاً خالقاً منزهاً عن الجور والظلم، تقتضي صحة البعث والقيامة[1].

وهكذا نجد أنه من أبسط قواعد العدالة وأبسط صورها أن يحاسب المرء على عمله ويجازى عليه ولا يكون هذا إلا يوم البعث حيث يتحقق وتتم المساءلة فيه.

قال تعالى:

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[2].

وعلى هذا وبتقرير أن البعث حق يتحقق، أن الموت حق، وأن الناس زالهم ميتون قال تعالى:

﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[3].

أي أن الناس سيموتون بأجلهم وأنهم مبعوثون ليوم الحساب فحين يسمعون الصيحة يخرجون قال تعالى:

﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾[4].

بهذه الصيحة تعلن يوم القيامة فيتوافد الناس ويحضرون جميعهم وهذا

---

(1) الإمام الرازي، المرجع السابق، ج 27، ص 270 ـ 271.

(2) سورة المجادلة، الآية: 6.

(3) سورة النحل، الآية: 61.

(4) سورة ق، الآية: 42.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ما أشار إليه الله سبحانه وتعالى فقال: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾[1] أي يحضرون بأمر الله ليجازوا على أعمالهم.

قال تعالى:

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ * فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[2].

هذا اليوم وهو يوم الصيحة هو يوم القيامة أو يوم البعث أو يوم القارعة كلها أسماء لمدلول واحد، ولكن ما هي الأحداث التي تحدث في هذا اليوم على ما أخبرنا الله عنها؟

في هذا اليوم تتكور الشمس وترمي عن فلكها وتتناثر النجوم والكواكب وتسير الجبال فتكون سراباً قال تعالى:

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ * وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ * وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾[3].

وهذه العلامات يمكن وقوعها في أول زمن تخريب الدنيا، ويمكن وقوعها بعد يوم القيامة، ولما ذكر الله تعالى هذه الأمور الاثني عشر، ذكر الجزاء المرتب على الشروط الذي هو مجموع هذه الأشياء فقال: (علمت نفس ما أحضرت) ومن المعلوم أن العمل لا يمكن إحضاره، فالمراد إذن ما أحضرته في صحائفها وما أحضرته عند المحاسبة وعند الميزان من آثار تلك الأعمال والمراد ما أحضرت من استحقاق من الجنة أو النار[4].

في هذا اليوم، يوم القارعة التي تصطك فيه الأجرام العلوية والسفلية

---

(1) سورة يس، الآية: 53.

(2) سورة الزلزلة، الآية: 6 ـ 8.

(3) سورة التكوير، الآية: 1 ـ 6.

(4) الرازي، المرجع السابق ج 31، ص 70.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اصطكاكاً شديداً عند تخريب العالم، بسبب تلك القارعة والتي يقرع الناس بها بالأهوال والإقراع، فلهذا سمي يوم القيامة بالقارعة، فإذا كانت القارعة هي التي تقرع النفوس بالأهوال والإقراع وذلك في السموات بالانشقاق والانفطار، وفي الشمس والقمر بالتكوير، وفي الكواكب بالانتثار، وفي الجبال بالدك والنسف، وفي الأرض بالطي والتبديل، هذه القارعة هي من الشدة بحيث لا يبلغها وهم أحد وهي إذ لها أثرها على الطبيعة بحيث تضحى فيها حياة الدنيا فانية كما تشير إلى بقاء الحياة الآخرة. فإنها أيضاً يوم القيامة تؤثر على النفوس.

أما متى يحل هذا اليوم أو تتحقق الصورة التي ذكرها الله في كتابه عن يوم القيامة فمعرفة هذا بعيد عن قدرة الإنسان وعقله أو مداركه وحواسه فلا يستطيع تحديده لأنه أمر يدخل في شمول الغيبيات التي اختص الله بعلمها دون سواه لهذا لن يتحصل على هذه المعرفة أحد لورود النص القاطع بنفي العلم بهذا اليوم عن أحد قال تعالى:

﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[2].

وإذا كان زمن القيامة مجهولاً فقد تقدم معنا فيما مضى بعض علاماتها وأشراطها قال تعالى مشيراً إلى ذلك اليوم.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ﴾[3].

---

(1) سورة الأحزاب، الآية: 63.

(2) سورة الزخرف، الآية: 85.

(3) سورة يونس، الآية: 24.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وعلى هذا لا يسوغ لنا أن نقول إن يوم القيامة قد اقترب أو نحدد قيامها بجيل أو بأجيال أو بقرن أو بقرون أو بأي حساب. ذلك لأن شواهد التاريخ دلت على وجود حضارات مماثلة لما نحن فيه قامت منذ أجيال ثم اندثرت ثم عادت في أجيال متلاحقة ولم تحصل القيامة ذلك لأن ميعادها منوط بعلم الله وحده بالنص القاطع قال تعالى:

﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾[1].

هذا ونحن إذ نسلم بعلم الله سبحانه وتعالى بميعاد يوم القيامة، وإنها ستقوم تبعاً لمشيئته وتقديره، وأنها لا بد قائمة تبعاً لما ذكر في القرآن الكريم بخصوصها سواء كان التعليل مرده إيماننا أو كان التعليل ما ذكرته الدراسات العلمية، إذ يعلل العلماء أن انتهاء الكون، واختفاء الأرض مرده إلى اختلال التوازن في الضوء والحرارة التي تمد الشمس بها الأرض، تبعاً لمقادير مناسبة، فإذا رجحت الزيادة أو النقص اختفى العالم، إذ يقول العالم الفلكي جيمس جنز في كتابه الكون الغامض: «إن الحياة كما نعرفها لا يمكن أن تبقى إلا في حالات مناسبة من الضوء والحرارة، ونحن إنما نعيش لأن الأرض تستقبل من إشعاعات الشمس المقدار المناسب بالضبط. فإذا اختل هذا التوازن ورجحت الكفة نحو أحد الاتجاهين.. نحو الزيادة أو النقص، فإن الحياة لا بد أن تختفي من الأرض، وحقيقة الموقف هي أنه من السهل جداً أن يختل هذا التوازن ولا بعد أن يكون الإنسان الأول عندما كان يقطن في المنطقة المعتدلة من الأرض قد شاهد بشيء من الفزع عصر الجليد يقترب من موطنه، لقد كان يرى أنهار الجليد في كل عام تتقدم باطراد في الوديان ويحس أن الشمس في كل شتاء أقل مقدرة على أن تمد الحياة بالحرارة اللازمة، ولا بد أن يكون قد ظهر لنا الآن أن الكون يناصب الحياة العداء... ونحن أبناء هذه الأيام المتأخرة الذين في المنطقة المعتدلة الضيقة المحيطة بشمسنا.. ننظر إلى المستقبل البعيد فنرى عصراً جليدياً من نوع آخر يهددنا. وتلك مأساة تنتظرنا نحن أيضاً. فربما قدر علينا أن نموت من البرد. على حين أن الجزء الأكبر من مادة الكون لا يزال شديد الحرارة. لا

(1) سورة فصلت، الآية: 47.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يسمح للحياة أن تستقر فيه. ذلك أن الشمس ليس لها مصدر خارجي تستمد منه حرارتها ولا بد إذن أن يقل بالتدريج مقدار ما تبعثه من إشعاع، هو مصدر الحياة فإذا استمرت الحال كذلك فإن المنطقة المعتدلة من مناطق الفضاء، وهي وحدها التي توجد فيها الحياة تقترب من الشمس شيئاً فشيئاً. . وإذا أريد أن تبقى أرضنا صالحة للحياة، فلا بد لها أن تقترب دائماً من الشمس المحتضرة لكن العلم يخبرنا أن الأرض لا تقترب من الشمس، بل إن قوانين الحركة وهي قوانين ثابتة لا تتحول. . . تعمل حتى في وقتنا هذا على أن تبعد أرضنا عن الشمس، وتدفعها نحو مناطق البرد والظلام الخارجية، ومبلغ علمنا أن هذه القوانين ستظل في عملها حتى تجمد الحياة على الأرض وتنعدم، إلا إذا وقع قبل ذلك اصطدام سماوي، أو وقعت واقعة أخرى هائلة، فأودي هذا أو أودت تلك بالحياة على عجل قبل ذلك الميقات المحتوم. . . وهذا الخطر المنتظر لا تتعرض له أرضنا وحدها بل إن شموساً أخرى لا بد أن تموت، كما تموت شمسنا، وكل حياة يمكن أن تكون على كواكب أخرى لا بد في النهاية أن تلقى ذلك المصير التعس، كذلك يقص علينا علم الطبيعة القصة نفسها التي يقصها علم الفلك، ذلك أننا صرفنا إذاً النظر عن جميع الاعتبارات الفلكية نجد القانون الطبيعي العام الذي عرف بالقانون الثاني لعلم الديناميكا الحرارية ينبىء بأن الكون لا يمكن أن يكون له سوى نهاية واحدة هي موت الحرارة حين تتوزع جملة طاقة الكون توزيعاً منتظماً، فتصير أجسام الكون كلها في درجة حرارة واحدة وستكون هذه الحرارة منخفضة انخافضاً يجعل الحياة مستحيلة، ولا يهم كثيراً أي طريق يصل بالكون إلى هذه الحالة النهائية، ذلك أن نهاية الرحلة لن تكون سوى الفناء الشامل».

هذا إذا كانت هذه الحقائق العلمية قد توصل إليها العلماء من حيث تناقض حرارة الشمس وأن الشمس ستموت كما تموت الشموس الأخرى علماً أنهم لم يتعرضوا إلى وجودها، أليس من المنطق الفعلي أن يكون لهذه الشموس خالق قد خلقها فقدرها بقضائه وقدره، وحدد لها عمراً معيناً كباقي المخلوقات التي لا بد وأن تموت، وإذا كان الأمر كذلك فمن البديهي أن يكون لخالقها القدرة بإنهاء فعاليتها تبعاً لمشيئته وأن يجعل انتهاءها علامة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على يوم القيامة هذا ونلاحظ أنه لا ضرورة لوجود الأسباب في حوادث الطبيعة وأن الأمر كله منوط بقدرة الله سبحانه وتعالى بمعنى أن انتهاء الكون وقيام القيامة لا ضرورة لبحث أسبابها علمياً لأن الله سبحانه وتعالى قادر على فعل ما يشاء وإن كانت هناك أسباب قدرها فإن فعالية هذه الأسباب لا تتم إلا بمشيئته وإرادته. ويبدو أن الإمام الغزالي يذهب إلى ذلك في فلسفته «إذ ينكر وجود السببية في حوادث الطبيعة، فمرد ذلك إلى اعتقاده أن اقتران الحوادث بعضها ببعض راجع إلى ما سبق من تقدير الله لخلقها على التساوي، فلا يكون ارتباطها ضرورياً بنفسه فالطبيعة في نظره مسخرة لإرادة الله لا تعمل بنفسها، بل تستعمل من جهة فاطرها والسببية الحقيقية ترجع عنده إلى علاقة إرادية بين الله والعالم. أما ارتباط الأسباب والمسببات الطبيعية لبعضها ببعض فلا قيمة له بنفسه، ولا معنى له إلا إذا استند إلى إرادة الله وفي قدرة الله أن يخلق شبعاً من غير أكل ورياً بدون شرب، وشفاء بدون دواء. واحتراقاً بدون نار، ولكن الغزالي لا ينكر حصول الاحتراق عند ملاقاة النار، بل ينكر أن تكون النار علة الاحتراق الضرورية، لأن حصول الشيء عند حصول الآخر لا يدل على أن أحدهما موجود بالآخر، وإذن الفاعل الحقيقي في نظره هو الله، وهو علة الاحتراق والشفاء والري والشبع، وعلة كل ظاهرة من ظواهر الطبيعة. وهو العالم القادر الذي يفعل ما يشاء ويحكم بما يريد، ويخلق المختلفات والمتجانسات كما يريد وعلى ما يريد»[1].

من هذا يتضح لنا أيضاً أن الله سبحانه وتعالى ينهي الحياة الدنيا ويطوي السماء كطي السجل للكتب وينسف الجبال ويفجر البحار ويكور الشمس كل هذه الأحداث وغيرها يفعلها بإرادته دون أن نلتمس أسباباً لها فيقيم القيامة بأمره وهو على كل شيء قدير.

الشمس:

وقد أشار الله سبحانه وتعالى إلى هذه النهاية للشمس. فقال: ﴿إِذَا

(1) جميل صليبا - بحث في فلسفة الغزالي، نشر في مقدمة كتاب «جواهر القرآن» للغزالي، ص 29، نقلاً عن مجلة العربي - الكويت - العدد 13.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

﴿ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾[1] حيث تخف حرارتها بسبب هذا التكوير فتتمدد وتكبر ويمتد سطحها المشع فتنخفض نتيجة لذلك حرارتها وبالتالي تخبو النجوم وتنطمس قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾[2] أي تخبو تماماً ولا تظهر هذا كما أنه بهذا التمدد واتساع مساحة الشمس تشتد قوة جاذبيتها فيجمع الشمس والقمر وهذه الحقيقة ثابتة بالقرآن قال تعالى:

﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ * وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ * وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾[3].

السماء:

إلى جانب هذه الظاهرة يظهر حدث آخر بحيث تتشقق السماء وتنفطر بقدرة الله وإرادته فتتغير السماء نتيجة لهذا الانفطار وتضحى حمراء كما وصفها الله قال تعالى:

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾[4].

وقال تعالى:

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾[5].

وقال تعالى عن آثار هذا الانشقاق: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[6].

وهكذا تتأثر الأشياء من سماء وأرض وبحار وشمس وقمر ونجوم بهذا اليوم فتتغير صفاتها وطبيعتها كل ذلك بأمر الله سبحانه وتعالى فالسماء

---

(1) سورة التكوير، الآية: 1.
(2) سورة التكوير، الآية: 2.
(3) سورة القيامة، الآية: 7 ـ 9.
(4) سورة الانشقاق، الآية: 1.
(5) سورة الانفطار، الآية: 1.
(6) سورة الرحمٰن، الآية: 37 ـ 38.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تضحى كالفضة المذابة ثم تطوى كطيّ السجل فيقول تعالى في هذا التغيير:

﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ﴾[1].

ويقول تعالى:

﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾[2].

وهكذا نجد أن القرآن الكريم وصف ما يحدث للسماء في يوم القيامة في آيات عدة من حيث تشققها بالغمام. ومن حيث إنها تأتي بدخان مبين أو من حيث انفطارها قال تعالى:

﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾[3].

وقال أيضاً: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا﴾[4].

وقال تعالى:

﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ * وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾[5].

وقال:

﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾[6].

ويتتابع الآيات في شأن وصف السماء نلاحظ أن القرآن ذكر ثلاثة عشر موضعاً أسند فيها الانشقاق أو ما في معناه إلى السماء يوم القيامة.

---

(1) سورة المعارج، الآية: 8.
(2) سورة الأنبياء، الآية: 104.
(3) سورة الدخان، الآية: 10.
(4) سورة الطور، الآية: 9.
(5) سورة الحاقة، الآية: 16 ـ 17.
(6) سورة النبأ، الآية: 19.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأرض:

أما بالنسبة للأرض فيتغير شكلها وطبيعتها وقوانينها حيث تختفي جاذبيتها فتفقد توازنها فتتحرك حركة هائلة نحو الانهيار، وبهذا تتبدل الأرض غير الأرض حيث ترتجف الأرض وتزلزل وترج تهزّ هزّاً مستمراً حتى تضحى هباءً منثوراً، فعن الرجفة قال تعالى:

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾[1].

وعن تسييرها ونسفها قال تعالى:

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾[2].

وقال تعالى:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾[3].

وقال تعالى:

﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾[4].

وقال تعالى:

﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾[5]. وقال تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾[6] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ * وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾[7].

---

(1) سورة المزمل، الآية: 14.
(2) سورة الكهف، الآية: 47.
(3) سورة طه، الآية: 105 ـ 107.
(4) سورة النمل، الآية: 88.
(5) سورة النبأ، الآية: 20.
(6) سورة القارعة، الآية: 5.
(7) سورة الانشقاق، الآية: 3 ـ 5.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهكذا نلاحظ أن الله سبحانه وتعالى يسند إلى الأرض أفعالاً عديدة بأمره وهي الرجف، والزلزلة، والرج، والمد، والدك، والبروز، والتخلي، والتسيير، والمرور، والنسف، والعهن.

البحار:

أما بالنسبة للبحار فتتغير طبيعتها فتفجر وتسجر قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾[2].

والمراد بلفظ سجرت[3] أي أضرمت ناراً وقيل غيضت مياهها. هذا ما سيحدث يوم القيامة للشمس والقمر والنجوم والأفلاك والسماء والأرض والبحار على ما ذكرناه وبمقارنة حالة هذه الأشياء في الدنيا وما عليها من استقرار وتوازن وجاذبية وما آلت إليه يوم القيامة كقوله تعالى في الأرض والسماء:

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾[4].

وقوله في الشمس والقمر وما كانا عليه من إضاءة وتسخير لبني البشر:

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾[5].

---

(1) سورة الانفطار، الآية: 3.

(2) سورة التكوير، الآية: 6.

(3) اختلف في تفسير هذا اللفظ في قوله تعالى فقيل: معناها ناراً وحميت وقيل: معناها فاضت ويقول الراغب الأصفهاني: السَّجر تهييج النار يقال: سجرت التنور ومنه والبحر المسجور وقوله: ﴿وإذا البحار سجرت﴾ أي أضرمت ناراً عن الحسن، وقيل: غيضت مياهها وإنما يكون كذلك بتسجير النار فيها ﴿ثم في النار يسجرون﴾ وسجرت الناقة استعارة لالتهابها في العدو نحو اشتعلت الناقة والسجير الخليل الذي يُسْجَر في مودّة خليله.

(4) سورة البقرة، الآية: 22.

(5) سورة يونس، الآية: 5.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقوله تعالى:

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾[1].

أما عن حالة البحار في الدنيا وما فيها من إمساك مائها من أن يفيض قال تعالى:

﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾[2].

وقال تعالى:

﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾[3].

وهكذا نجد أن الأشياء المادية تتغير يوم القيامة في نظامها وطبيعتها وقوانينها عما كانت عليه في الدنيا.

آثار يوم القيامة على الأحياء:

لقد وصف القرآن ما يصيب الناس من جراء يوم القيامة كما بين أثره على نفوسهم سواء من حيث ذهولهم أو اضطرابهم فقال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾[4].

هذا كما وصف القرآن ندم المسيئين ووصف حالهم من الندم وإدراكهم بعدم نفعهم الندم، وأنهم لم يعد أحد يملك نفعهم، وأنه يوم لا يمهل فيه أحد يوم تشخص فيه أبصار الكافرين ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾[5] فتكون

---

(1) سورة الرعد، الآية: 2.

(2) سورة النمل، الآية: 61.

(3) سورة الرحمٰن، الآية: 19 ـ 20.

(4) سورة الحج، الآية: 1 ـ 2.

(5) سورة المعارج، الآية: 10.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قلوب الناس فيه واجفة وأبصارهم خاشعة: ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾[1].

في هذا اليوم لا تجد للضالين من هاد إلا الله قال تعالى:

﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ * يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾[2].

قال تعالى في وصف هذا اليوم أيضاً وأثره على الإنسان من الناحية الفزيولوجية:

﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا * ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا﴾[3].

ومعنى ذلك أنه كيف تتقون أنفسكم يوم القيامة وهو له إن بقيتم على الكفر. أو كيف تتقون الله وتخشونه إن جحدتم يوم القيامة وأنه من هول هذا اليوم وشدته تشيب نواصي الأطفال والأصل فيه أن الهموم والأحزان، إذا تفاقمت على الإنسان أسرع فيه الشيب لأن كثرة الهموم توجب انقصار الروح إلى داخل القلب وذلك الانقصار يوجب إطفاء الحرارة وانطفاء الحرارة الغريزية وضعفها يوجب بقاء الاجزاء الغذائية غير تامة النضج، وذلك يوجب ابيضاض الشعر..

ويجوز أن يكون المراد وصف ذلك اليوم بالطول، وأن الأطفال يبلغون أوان الشيخوخة والشيب[4]. هذا اليوم العظيم بأهواله وأحداثه على الطبيعة وعلى الإنسان نلاحظ أن الله سبحانه وتعالى نظراً لأهميته قد أطلق عليه سفات وأسماء عديدة وقد سبق أن عرضنا بعضها فإلى جانب ما ذكرناه أطلق على هذا اليوم.

---

(1) سورة القيامة، الآية: 10.

(2) سورة غافر، الآية: 32 ـ 33.

(3) سورة المزمل، الآية: 17 ـ 18.

(4) الإمام الرازي في تفسيره، ج 30، ص 183 ـ 184.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يوم الفتح:

قال تعالى:

﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَـٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾[1].

والمراد بيوم الفتح هو يوم الحكم والقضاء، وقيل يوم إزالة الشبهة بإقامة القيامة، وقيل ما كانوا يستفتحون من العذاب ويطلبون[2].

ويسمى يوم التلاقي:

قال تعالى:

﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَـٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ * يَوْمَ هُم بَـٰرِزُونَ﴾[3].

والمراد بالتلاق هو يوم ملاقاة الله عز وجل، عبارة عن القيامة وعن المصير إليه قال تعالى: ﴿واعلموا أنكم ملاقوه﴾ وقال تعالى: ﴿فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا﴾ أي نسيتم القيامة والبعث والنشور[4].

ويسمى يوم الجمع والتغابن:

قال تعالى:

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾[5].

والمراد بالتغابن يوم يغبن فيه أهل الجنة أهل النار، ويقال يوم التغابن يوم القيامة لظهور الغبن في المبايعة المذكورة وقيل المراد به أنه اليوم الذي يتغابن فيه الكفار، فهم فريقان فريق لا يقول لولا أنتم لكنا مؤمنين. فهو يخفى زيفه الذي أدى به إلى الكفر ظناً منه أن ذلك ينجيه، وفريق يتبرأ من

---

(1) سورة السجدة، الآية: 29.

(2) الأصفهاني ـ «المفردات في غريب القرآن» ص 370.

(3) سورة سورة غافر، الآية: 15 ـ 16.

(4) الأصفهاني ـ المرجع السابق، ص 453.

(5) سورة التغابن، الآية: 9.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفريق الأول فأئمة الشرك يخفون إضلالهم الكفار ويزعمون أنهم كانوا غافلين عن عبادتهم ليفلتوا من نصيبهم من ذنوبهم، ويتركوه على كواهلهم وحدهم.

ويسمى يوم الخروج:

يوم ينادي المنادي من مكان قريب.

قال تعالى:

﴿يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ * يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾[1].

المراد بيوم الخروج يوم القيامة وهو يوم ينادي المنادي يخرجون من القبور، يوم يسمعون الصيحة.

ويسمى يوم الحسرة:

قال تعالى:

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۘ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[2].

المراد بيوم الحسرة يوم القيامة إذ الحسرة تفيد الغم على ما فات والندم عليه والمعنى في هذه الآية خطاب موجه إلى محمد ﷺ أنذرهم يا محمد يوم الحسرة وقد قضى الأمر وهم غافلون وأعلمهم أن الله يرث الأرض ومن عليها، وإليه يرجع الأمر كله[3].

ويسمى يوم التنادي:

قال تعالى:

---

(1) سورة ق، الآية: 41 ـ 42.

(2) سورة مريم، الآية: 39.

(3) محمد حجازي ـ التفسير الواضح، ج 2، ص 10.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾[1].

المراد بيوم التنادي هو يوم يتنادى فيه أهل الجنة والنار. والآية مقصود بها بيوم التنادي يوم القيامة وما أكثر النداء فيه، وينادي أصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم ـ كما ذكر هذا في سورة الأعراف ـ وينادي المنادي بالشقوة لأهل الشقوة، وبالسعادة لأهل السعادة، وفيه تنادي الملائكة كلاً بما يستحقه.

فيوم التنادي: ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾[2].

ويسمى الأزفة:

قال تعالى:

﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ * لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾[3].

المراد بأزفت الأزفة أي دنت القيامة وقربت وليس لها من دون الله نفس تكشفها وتزيلها بل الأمر يومئذٍ لله سبحانه وتعالى وعبر عنها بالماضي لقربها وفيها قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ﴾[4].

ويسمى الطامة:

قال تعالى:

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ * يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ﴾[5].

والمراد بالطامة هي الداهية لأنها تطم على كل شيء، أي تعلوه وتغطيه فإذا جاءت الداهية الكبرى والتي يتضاءل أمامها كل حدث وهي يوم القيامة،

---

(1) سورة غافر، الآية: 32.

(2) سورة غافر، الآية: 33.

(3) سورة النجم، الآية: 57 ـ 58.

(4) سورة غافر، الآية: 18.

(5) سورة النازعات، الآية: 34 ـ 35.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يوم يتذكر الإنسان ما كان قد علمه فيراه مكتوباً في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها عندئذٍ تبرز جهنم ويفصل الله بين الخلائق فمنهم الشقي ومنهم السعيد أما الشقي الذي طغى وتجاوز حدود الله وآثر الدنيا على الآخرة فإن الجحيم هي المأوى وأما من آثر الآخرة وخاف قيامه يوم القيامة بين يدي العزيز الجبار ونهى نفسه عن هواها واتقى الله فإن الجنة هي المأوى.

ويسمى يوم الفصل:

قال تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾[1].

المراد بالفصل الإبانة والإيضاح بين أحد الشيئين من الآخر، وهذا يوم الفصل أي اليوم الذي يبين فيه الحق من الباطل ويفصل بين الناس بالحكم وعلى ذلك يفصل الله بينهم وهو خير الفاصلين.

وقد ورد ذكر هذا اليوم في القرآن ست مرات، وسمي يوم الفصل وهو يوم القيامة يوم يفصل بين الناس لأن الفصل أدق في معنى الفرق بين الشيئين لم يمتزجا فيعدا كشيء واحد.. وهكذا الفرق بين الصالح والطالح فليس بين الصلاح والطلاح فرق بين، بل في كل امرىء قدر من كليهما والفرق بين العمل الصالح والعمل الطالح كذلك فهما مراتب يختلف في تقديرها ولا يسهل الحكم بأحدها، فكان الفصل أدق في أداء معنى الحساب الدقيق والحكم العادل. وهذا من جواب الملائكة للكفار أو من جواب الكفار بعضهم لبعض على سبيل التذكير والتوبيخ. فقيل لهم أو قالوا لأنفسهم إنه يوم القضاء العادل واستعمال الفرق في هذا المقام من الفصل بين المؤمنين والكفار، فيه معنى الشدة.

ويسمى الحاقة:

﴿ٱلْحَآقَّةُ * مَا ٱلْحَآقَّةُ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾[2].

المراد بالحاقة الساعة التي تحقق أمور البعث وتثبتها وهي المحققة

---

(1) سورة الصافات، الآية: 21.

(2) سورة الحاقة، الآية: 1 ـ 3.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الوقوع وكأن النفس لغرابتها وهولها تتساءل عنها قائلة ما الحاقة. أليس عجباً من الإنسان وخاصة المكذبين للبعث لا يدرون ما الحاقة على حقيقتها ثم يكذبون بها. وجزاء من يكذب بها ما حصل لعاد وثمود. فالله سبحانه وتعالى يخاطب محمداً ﷺ ليصبر على تكذيب قريش للبعث ويعده الله بأنه معه ويحذر المكذبين عاقبة عملهم.

ويسمى الصاخة:

قال تعالى:

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ * يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ * وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾[1].

المراد بالصاخة يوم القيامة وهي التي تصم الآذان من شدتها وتتم بالنفخة التي تقوم بها، ويذكرنا الله سبحانه وتعالى بيوم القيامة وأهواله التي تجعل الإنسان يذهل عن أحب الناس إليه ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ * وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾[2].

أي أن الإنسان الذي كان يفر من الدنيا إليهم ويستجير بهم فإنه يفر منهم في دار الآخرة والسبب في ذلك أن ما هو عليه يغنيه ويصرفه ويصده عن قرابته[3].

ويسمى يوم الغاشية:

قال تعالى:

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾[4].

---

(1) سورة عبس، الآية: 33 ـ 37.

(2) سورة عبس، الآية: 34 ـ 37.

(3) الإمام الرازي، المرجع السابق، ج 30، ص 64.

(4) سورة الغاشية، الآية: 1.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المراد بالغاشية الداهية التي يغشى الناس هولها وذكروا في الغاشية وجوهاً:

أحدها أنها القيامة من قوله تعالى:

﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾[1] إنما سميت القيامة بهذا الاسم، لأن ما أحاط بالشيء من جميع جهاته فهو غاش له، (أو) أنها ترد على الخلق بغتة وهو كقوله تعالى:

﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾[2].

(والثاني) أنها تغشى الناس جميعاً من الأولين والآخرين.

(والثالث) أنها تغشى الناس بالأهوال والشدائد[3].

ويسمى الواقعة:

قال تعالى:

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ * لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ * خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾[4].

الوقوع ثبوت الشيء وسقوطه والواقعة لا تقال إلا في الشدة والمكروه، وأكثر ما جاء في القرآن من لفظ وقع، جاء في العذاب والشدائد كقوله تعالى:

﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾[5].

وقال تعالى:

﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾[6].

والمراد بالواقعة في هذه الآية أنه إذا وقعت القيامة الواقعة أو الزلزلة

---

(1) سورة العنكبوت، الآية: 55.

(2) سورة يوسف، الآية: 107.

(3) الإمام الرازي، المرجع السابق، ج 30، ص 150.

(4) سورة الواقعة، الآية: 1 ـ 3.

(5) سورة المعارج، الآية: 1.

(6) سورة الحاقة، الآية: 15.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الواقعة يعترف بها كل أحد، ولا يتمكن أحد من إنكارها، ويبطل عناد المعاندين فتخفض الكافرين في دركات النار، وترفع المؤمنين في درجات الجنة، هؤلاء في الجحيم وهؤلاء في النعيم[1].

ويسمى القارعة:

قال تعالى:

﴿ٱلْقَارِعَةُ * مَا ٱلْقَارِعَةُ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾[2].

القرع الضرب بشدة وسميت الحادثة العظيمة القارعة لأنها تقرع أصحابها وتصك آذانهم فالقارعة إذن هي من حوادث الدهر العظيمة.

قال تعالى:

﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ﴾[3].

والقارعة هي التي تقرع الناس بالأهوال والافزاع، وذلك، في السموات بالانشقاق والانفطار، وفي الشمس والقمر بالتكور، وفي الكواكب بالانتثار، وفي الجبال بالدك والنسف، وفي الأرض بالطي والتبديل كما أنها تقرع أعداء الله بالعذاب والخزي والنكال، واتفق المفسرون على أن القارعة اسم من أسماء يوم القيامة. يوم الفزع الأكبر والهول الشديد[4].

وهكذا نجد أن الأسماء المتعددة ليوم القيامة إنما في حقيقتها لمدلول هذا اليوم يثير الوجدان والخيال معاً. ويهز النفوس خوفاً وفزعاً وهولاً. ومع ذلك لا يمكن تصور وقائع أحداث هذا اليوم، فالله سبحانه وتعالى يعلم وحده ما سيحدث فيه من صور ووقائع صريحة لا لبس فيها، ومع ذلك فإنه بالنسبة للإنسان من العسير عليه مهما أوتي من قدرة إدراك حقيقتها وتحديد مداها بصراحة ووضوح لأنها من الشدة بحيث لا يبلغها وهم أحد ولا فهمه،

---

(1) الإمام الرازي، المرجع السابق، ج 30، ص 139.

(2) سورة القارعة، الآية: 1 ـ 3.

(3) سورة الرعد، الآية: 31.

(4) الإمام الفخر الرازي في تفسيره، ج 32، ص 70.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كيفما كانت قدرته، إذ هذا اليوم وما يحدث فيه أعظم من تقدير الإنسان فإنها تثير الوجدان باعتبارها واضحة وصريحة في بيان الصفة التي تهز النفس وعلى هذا فقد استعمل القرآن الكريم في التعبير عنها ألفاظاً تصدق في معانيها على ما تصدق على كثير من الأحداث التي تقع بمدلول اللفظ وما يعطيه من معنى، إذ يقدر ما يرتبط الشيء الموصوف بغيره كثرة وعمقاً يوحي في الوقت ذاته بكثير من المعاني المتعددة والعميقة، فاستعمال اللفظ الثري بألوان الإيحاء لشيء معين يثير معاني عديدة تختزن في الذهن وتفسح للخيال تصوره بصور عديدة كما أنه يهز النفس تبعاً لهول المعنى للفظ في مدلوله ومبتغاه. وعلى هذا نستطيع القول إن أسماء اليوم الآخر أو يوم القيامة في القرآن جمعت في ألفاظ جميعها مروعة فالساعة، والصاخة، والغاشية، والفصل، والحاقة، والقارعة، كل هذه تحتوي المعاني الكبيرة والواسعة للدلالة على أوصاف المسمى يوم القيامة إذ تتم بأمر الله في لحظة محددة تبعاً لقدرته فيقول للشيء كن فيكون فينفخ في الصور فيصعق من في السموات والأرض من مخلوقات إلا ما شاء الله سبحانه وتتوالى الأحداث وتتزاحم فإذا بالخلق قد برزوا للواحد القهار فيقومون للحساب.

أثر اليوم الآخر على سلوك الإنسان:

ويبدو لنا أن الإكثار من أسماء يوم القيامة ووصف أهواله إنما يرمي إلى حكمة بالغة، فالإنسان إذ خلق على الأرض لتحقيق رسالة الخلافة عن الله في الأرض وقد كلف بالقيام بالالتزامات والواجبات التي فرضت عليها والانتهاء عن النواهي التي نهى عنها، وبهذا فهو لم يترك سدى وإزاء هذا فهو مساءل يوم القيامة عن هذه الرسالة أمام الله سبحانه وتعالى، وعلى هذا يقتضي أن يؤمن إذن بيوم القيامة وما يجري فيه بعد البعث من حساب وجزاء من ثواب وعقاب وما فيه، الجنة والنار والفلاح والخسران، هذا الإيمان بطبيعته يوجه الإنسان نحو القيام بالتزاماته بالعمل الصالح ليتزود ليوم الآخرة بالثواب والفوز وهذا لا شك له أقوى الأثر في نفس الإنسان المؤمن، إذ يخشى الله في كل عمل يقوم به، أما الذي لا يعتقد بهذا اليوم وينكر وجوده فهو ينكر الحساب والعقاب. ذلك أن الإنسان إذ لا يردعه رادع ولا تخيفه منافعه الذاتية دون أن يقيم أي اعتبار لأي قيم بمعنى أنه يتصرف دون أن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يكون له أي ضابط أو رابط، فيتبع هواه ويجري وراء شهواته. على خلاف المؤمن، كما ذكرنا، فهو منضبط في حدود الحق والخير ومندفع نحو الصلاح، وهذا ما أشار الله سبحانه وتعالى إليه فقال:

﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾[1].

وهكذا نجد أن هناك ارتباطاً وثيقاً بين الإيمان والعمل الصالح إذ بمقتضى الإيمان بالله واليوم الآخر يندفع الإنسان نحو العمل الصالح لينال رضى الله سبحانه وتعالى طالما أنه ملاق ربه يوم القيامة ومساءل عن أفعاله وتصرفاته قال تعالى:

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ * فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ * وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾[2].

وقال تعالى:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ﴾[3].

هذا وإذا كان الإنسان أصلاً مفطوراً على طلب المصلحة لنفسه ودرء المفسدة عنها، فإن الإيمان باليوم الآخر يقوى عنده الوازع الديني ويجعله يطبق مقولة «إن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح» وبهذا الإيمان يبتعد الإنسان عن الشر. ويكون الإيمان باليوم الآخر الأساس في تقويم سلوكه، إذ لولا الإيمان لانحرف الإنسان عن طريق الخير، لأن النفس البشرية

(1) سورة الأعراف، الآية: 8 ـ 9.
(2) سورة الماعون، الآية: 1 ـ 3.
(3) سورة الممتحنة، الآية: 6.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بطبيعتها نزاعة إلى الاستمتاع بالحياة الدنيا على الرغم من أنها متاع الغرور، قال تعالى:

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾[2].

وقال تعالى:

﴿وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾[3].

وقال تعالى:

﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[4].

هذا الاهتمام من القرآن بالتذكير باليوم الآخر إنما فيه موعظة إذ نبه الناس على وجوب التقيد بأوامر الله والالتزام بحدود الله لأن من أخل بشيء منها فقد ظلم نفسه وأضر بها لأن حدود الله إنما وضعت لمصلحة الإنسان ومخالفاتها بعرضه للمساءلة يوم الآخرة.

قال تعالى:

﴿ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾[5].

وبما أن النفس بطبيعتها نزاعة للنسيان والغفلة، كما وتتثاقل في القيام

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 185.

(2) سورة النساء، الآية: 77.

(3) سورة الرعد، الآية: 26.

(4) سورة النحل، الآية: 117.

(5) سورة الطلاق، الآية: 2.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بالتزاماتها، كان من الضروري دائماً التذكير باليوم الآخر وما فيه من عذاب أو نعيم، للترهيب والترغيب، وبهذا يحقق الإنسان من الغلو في التهافت على حب الدنيا، فيعلم أن ما فيها من متاع أو شهوات لا تستحق هذا التهافت فيعدل نفسه نحو الاهتمام بما سيقدمه يوم الآخرة من عمل في سبيل الله.

قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[1]. هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن الإيمان باليوم الآخر يجعل الإنسان مؤمناً بالقيم الإنسانية التي شرعها الله فيتجه نحو العمل الصالح، وبهذا نجد أن المحرك الأساسي بالعمل الصالح بما ينفع الناس إنما يكمن في الإيمان بشموله المطلق بما فيه الإيمان باليوم الآخر وعلى هذا يكون اليوم الآخر هو الدافع لعمل الإنسان وحركته وسلوكه الخير في الدنيا وبهذا يكون اليوم الآخر له أثره البعيد على حياة الإنسان بل هو صمام الأمان في مساءلته يوم القيامة طالما أنه عمل صالحاً بما يرضي الله وحقق الثواب والخير والطمأنينة لنفسه في الدنيا وفي الآخرة وفاز فوزاً كبيراً وأضحى من الصالحين.

قال تعالى في حق هؤلاء مشيراً إلى جزائهم ومرتبتهم ووضعهم:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[2].

وقال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ * جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ

(1) سورة التوبة، الآية: 38.

(2) سورة العنكبوت، الآية: 9.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

﴿ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾[1].

وبهذا نجد أن الإيمان بمعناه الشامل للعقيدة الإسلامية يحقق بطبيعته العمل الصالح ويسلك الناس فيه. إذ لا يمكن أن يقوم إيمان دون عمل صالح، وبهذا يتميز المؤمنون الذين عملوا الصالحات بميزة حسنة ودرجات عالية.

﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾[2].

وقال تعالى:

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[3].

وقال تعالى:

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾[4].

هذه الميزة العالية هي مرتبة الرضا عند الله سبحانه وتعالى فمن رضي الله عنه يدخله في رحمته ويدخله جنة المأوى، كما ويجزيه من فضله ويعده برعايته بالمغفرة والرزق الكريم.

فقال تعالى:

﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾[5].

---

(1) سورة البينة، الآية: 7 ـ 8.

(2) سورة طه، الآية: 75.

(3) سورة الجاثية، الآية: 21.

(4) سورة الجاثية، الآية: 30.

(5) سورة السجدة، الآية: 19.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقال تعالى:

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِيٓءُ﴾[2].

وبهذا نجد أن الفارق واضح بين المؤمنين والكافرين، وبين الصالحين والمفسدين كالفارق بين الأعمى والبصير وعلى هذا الأساس يجب على الإنسان بمقتضى إيمانه وشمول هذا الإيمان لمفاهيم العقيدة الإسلامية ومشتملاتها أن يؤمن باليوم الآخر وبكل ما يحدث فيه من غيبيات ووقائع ابتداء من الموت والنفخ في الصور والبعث والحشر والحساب والجنة والنار نظراً لما لهذا الإيمان من أثر بعيد على حياة الإنسان في الدنيا وفي الآخرة.

(1) سورة الحج، الآية: 50.

(2) سورة غافر، الآية: 58.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الإنسان في الدنيا

الباب الثالث

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الأول

خلق الإنسان

يتوالد الإنسان في هذه الدنيا تبعاً لقاموس التوالد والتكاثر في الأحياء. هذا القاموس قائم عند جميع المخلوقات الحية على اختلاف أنواعها ومع ذلك فإن التوالد والإنجاب لا يتم بإرادة الإنسان، كما لايمكنه أن يتحكم في موعد ميلاد الطفل أو في شكل المولد أو في جنسه ذكراً كان أو أنثى، أو في تحقيق الحمل أصلاً، إذ كثيراً ما نجد زوجين على أتم ما يكون من الصحة، لا يشوب قدرتهما على الإنجاب قصور ظاهر أو واضح، وعلى الرغم من سلامة الفحوص وحسن نتائجها ومع ذلك يفشلان في الحصول على مولود ذلك لأن إيجاد المولود إنما هو ناجم عن عملية خلق والخلق انفرد به الله سبحانه وتعالى خالق كل شيء قال تعالى:

﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1].

فالله سبحانه وتعالى قد خلق الإنسان لحكمة يريدها وهدف يقصده تبعاً لعلمه ومبتغاه، كما وخلق الكون لكنه لم يخلقه مجرداً من الإنسان. لأن الإنسان مستخلف في الأرض فاستمرار الكون إذن يظل قائماً ما دام الإنسان فيها مستمراً ومتوالداً ومتكاثراً إلى أن يشاء الله إنهاء الحياة على هذا الكون فينهي الكون وما عليه من مخلوقات عامة يوم القيامة وهكذا نجد أن الخلق عامة لا يقدر عليه أحد غير الله سواء كان إنساناً أو حيواناً أو ذباباً.

قال تعالى:

---

(1) سورة المائدة، الآية: 17.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾[2].

والمراد أنه سبحانه خلق الإنسان من ماء مهين هو ماء النطفة فسواه وعدله وجعله كامل الخلقة ذكراً أو أنثى فكون له المصاهرة والقرابات من جراء التزاوج فيما بين الناس. هذا الخلق تم بقدرة الله الذي خلق الإنسان من ماء مهين، فخلقه من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة هذا قد أتمه الله تبعاً لقواعد، ووفقاً لناموس التكوين في الخلق وتبعاً لما يشاء، وخلق للإنسان الأعضاء، والمقومات والقدرات، خلقه فسواه فعدله في أي صورة ما شاء ركبه وقد خلقه من نفس واحدة.

قال تعالى:

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾[3].

وقال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ * ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾[4].

وقال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾[5].

---

(1) سورة الحج، الآية: 73.

(2) سورة الفرقان، الآية: 54.

(3) سورة النحل، الآية: 4.

(4) سورة الانفطار، الآية: 6 ـ 7.

(5) سورة النساء، الآية: 1.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هذا وأن أصل خلق الإنسان إنما خلق من تراب من طين من صلصال كالفخار قال تعالى مشيراً إلى ذلك:

﴿ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ﴾[2].

هذا وقد بين القرآن مراحل تكوين الإنسان في بطن أمه وخلقه من بعد خلق في ظلمات ثلاث ظلمة المشيمة ثم ظلمة الرحم. ثم ظلمة البطن قال تعالى:

﴿يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖۚ﴾[3].

هذه المراحل أشار إليها الله سبحانه وتعالى وشرحها وأبان فيها تطور نمو الإنسان بعد الولادة إلى أن ينتهي إلى الشيخوخة فبين خلق الإنسان وانتهاءه فذكر خلقه من تراب.

أولاً: خلق الإنسان من تراب:

التراب منه خلق آدم، ثم وضح الله صورة هذا الخلق من حيث الانطلاق أي ابتداء من خلية التكوين وهو المني سواء كان المخلوق ذكراً أو أنثى وهذا المني يتكون من الدم، والدم يتكون من الغذاء، والغذاء سواء كان نباتاً أو حيواناً فهو من الأرض وبهذا صح أن كل إنسان خلق من تراب، والتراب بتحليله معملياً نجد فيه الكربون، والاكسجين، والأيدروجين، والفسفور، والكبريت، والآزوت، والكالسيوم، والبوتاسيوم، والصوديوم، والكلور والمغنسيوم والحديد، والنحاس، واليود، والفلورين، والكوبالت، والزنك، والسلكون، والألمونيوم.

---

(1) سورة السجدة، الآية: 7.

(2) سورة الرحمٰن، الآية: 14.

(3) سورة الزمر، الآية: 6.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وإذا حللنا جسم الإنسان أيضاً معملياً وجدنا العناصر نفسها وهكذا وضح ما أورده الله سبحانه وتعالى مقيماً الحجة على من كفر بالله.

قال تعالى:

﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾[1].

ثانياً: خلق الإنسان بجعله نطفة وهي المرحلة الثانية:

هذه النطفة هي سلالة من ماء مهين فالله بقدرته حوّل التراب اليابس إلى ماء فيه حيوانات منوية ولا علاقة بينها ولا مناسبة ولكنها قدرة الله العجيبة القادر على كل شيء.

ثالثاً: خلق الإنسان بجعله علقة وهي المرحلة الثالثة.

والعلقة نطفة من الدم الجامدة، ولا شك أن بين المني كماء والدم الجامد مباينة، ومع هذا فقد تحول الماء إلى دم جامد بقدرة قادر، وفي هذا إشارة إلى أنه لا معنى لاستبعاد الإعادة بسبب التحول من مادة إلى أخرى فإنه ثابت في بدء الخلق.

رابعاً: خلق الإنسان بجعله مضغة وهي المرحلة الرابعة:

والمضغة قدر ما يمضغ من اللحم، وانظر أصلها الأول وكيف وصل التراب إلى ماء ثم إلى لحم يمضغ!! وهذه المضغة قد تكون مخلقة مسواة سالمة من العيوب والنقصان، تمت فيها أحوال الخلق ورسومه وقد تكون غير ذلك.

وهكذا تمر هذه المراحل بما يسمى بمدة الحمل فقد يولد الجنين لستة أشهر أو لتسعة أشهر أو لسنة أو لسنتين على رأي بعض الفقهاء إذ قالوا إن أقل مدة الحمل ستة أشهر ولحظتان ونهايته أربع سنين[2]. هذا وبعد أن تنتهي مدة الحمل يمر الإنسان بمراحل أيضاً وهي:

1 ـ مرحلة الخروج من بطن الأم طفلاً يتنفس ويعيش ويغذي كما كان

---

(1) سورة الكهف، الآية: 37.

(2) محمد محمود حجازي، التفسير الواضح، ج 2، ص 61.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يطعم ويغذي ويتنفس وهو في بطن أمه ولكن هناك فارقاً بين حالة الطفل في بطن أمه وحالته في الحياة العامة بعد الولادة.

2 ـ مرحلة النماء والتقوية في هذه المرحلة يشتد عود الطفل وتبعاً لغريزة وحب البقاء يرضع ثدي أمه فيتغذى في هذه المرحلة ليعيش حتى يبلغ أشده وكمال قوته وعقله عندما يبلغ سن الشباب.

3 ـ مرحلة الشيخوخة وهي مرحلة الضعف سواء في القوى الجسدية أو القوى العقلية ففي هذه المرحلة تضعف خلايا الجسم ثم تتبدل إلى أضعف وهكذا يصل إلى مرحلة الضياع بحيث لا يعلم مما كان يعلمه وهذا مصداق لقوله تعالى:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾[1].

كل هذه المراحل ذكرها الله سبحانه وتعالى في قوله:

﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ﴾[2].

وهكذا تم خلق الإنسان بقدرة الله القادر، كما خلق هذا الوجود فخلق فيه البشر مختلفين بأشكالهم وصورهم. أو صور آبائهم وأمهاتهم. ووضع غريزة الإنجاب ليستمر التناسل وتنجب الأولاد والأحفاد، ويستمر وجود الإنسان، كل هذا تقرر بإرادته سبحانه وتعالى منذ الأزل، حيث يتزاوج

---

(1) سورة الروم، الآية: 54 .

(2) سورة الحج، الآية: 5.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الرجل بالأنثى، وقد يتم الإنجاب أو لا يتم كل ذلك يتم بمشيئة الله الحاكمة وتبعاً لإرادته وحكمته البالغة فلا يملك إذن أحد بإرادته أن ينجب أو يعين إنجابه ذكراً أو أنثى وفقاً لمشيئته إنما الأمر لله وحده يعطي ويمنع من يشاء ويهب لمن يشاء أولاداً ذكوراً ويهب لمن يشاء إناثاً ويعطي لمن يشاء ذكوراً وإناثاً فيزاوج بينهما. ويجعل من يشاء عقيماً فلا يحقق له إنجاباً بالمرة.

قال تعالى:

﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾[1].

تلك حكمته وقضاؤه وقدره، ولا راد لقضائه أو قدره أو مشيئته، خلق الإنسان وكرمه وحدد أجله بزمن محدود فلا يملك أحد مده أو قصره، فإذا خلق الإنسان قضى الله له أجلاً يعيش به في الدنيا إلى أجله المحدود.

قال تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾[2].

وقال تعالى:

﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[3].

وهناك أجل آخر وهو أجل الدنيا حيث تنتهي إلى مصيرها إلى الحياة الآخرة التي لا يعلم أحد عن ميعادها شيئاً ولم يطلع عليه حتى ولو نبياً مرسلاً قال تعالى:

---

(1) سورة الشورى، الآية: 49 ـ 50.

(2) سورة الأنعام، الآية: 2.

(3) سورة الأعراف، الآية: 34.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾[2].

وعلى هذا نجد أن الإنسان لم يخلق بإرادته كما لا يتوفى بإرادته، إنما خلقه ووفاته يتم بأمر الله وقدره هذا، وقد يمرض الإنسان ويحاول أن يوقف أجله، ولو إلى حين، ويحاول فتفشل محاولاته فيموت، أو تنجح محاولاته فيعيش على أن هذا لا يعني أنه قد مد أجله بإرادته، بل معنى ذلك أن أجله لم يحن بعد، حتى لو حاول الإنسان الانتحار ونجح في هذه المحاولة لا يعني أنه قد أنهى حياته بل إن لحظة انتهاء أجله قد حلت، وأن أجله مقدر ومحدد بالانتحار.

وكذلك الأمر بالنسبة لمن مات فجأة وهو في ريعان شبابه وذروة قوته وتمام صحته، إذا جاء أجله فلا يستأخر عنه ساعة ولا يستقدم. إنها أنفاس محدودة في أيام معدودة لا بد بانتهائها من أن ينتهي أجل الإنسان فينتقل من عالم الدنيا إلى عالم آخر، وهو من عوالم الغيب فيدرك بذلك حقيقة قدرته وأنه عاجز ضعيف لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة.

قال تعالى:

﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا﴾[3].

وقال تعالى:

﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا

(1) سورة الأعراف، الآية: 187.

(2) سورة المنافقون، الآية: 11.

(3) سورة النساء، الآية: 28.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾[1].

هذا الإنسان الذي خلقه الله سبحانه وتعالى، خلقه في أحسن تقويم فقد خلقه في منتهى البهاء والدقة ففيه تظهر آثار قدرته وعظمته في خلق هذا الكائن، إذ كل ما فيه معجزة، عقله كيف يعمل ويفكر وماذا يطرأ عليه؟ وكيف يتذكر الأحداث ويحاكم الأمور؟ ويتصور ويتخيل كل هذه الأمور تصدر عن المخ الذي انطوى فيه سر عقل الإنسان كذلك جهاز البصر كيف يبصر الإنسان وكيف تنقل العين الصور إلى الشبكية؟ ثم تنعكس ثانية ليدركها الإنسان إنها معجزة أيضاً!! وكذا بالنسبة للسمع أيضاً إنه يتم بواسطة جهاز في منتهى الدقة أيضاً، وهكذا نجد في كل حاسة، بل في كل عضو من أعضاء الإنسان معجزة تدل على قوة الله سبحانه وتعالى وقدرته وعظمته الخلاقة في كل ما خلق.

هذا الإنسان الكائن العجيب الصنع والعظيم التكوين يسعى ويعمل ويكدّ ويستريح ليجدد قدرته ويحفظها، فينام سواء في الليل أو في النهار لا بد له من النوم لتستمر الأعضاء في القيام بوظائفها ويستعيد قوته وطاقاته وهو محكوم بها، سنة الله لا يملك الإنسان تبديلها أو تغييرها.

قال تعالى:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾[2].

لا شك أن النوم فيه راحة للإنسان بل هو موت أصغر وفيه تختلف الحساسية والمقدرة على التفكير، إذ يختفي عند النوم الإدراك ويترك الإنسان العمل والحس اليومي ليستريح جزءاً من الوقت في النوم فيكون أشبه بالميت ثم يعاوده النشاط عند اليقظة، مجدداً ليبتغي من فضل الله فيسعى للاكتساب والرزق. وهذه القوى العقلية، ومقومات الإدراك والحس أين ذهبت؟ وكيف

(1) سورة الفرقان، الآية: 3.

(2) سورة الروم، الآية: 23.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

توقفت؟ وكيف تعود؟ إنها آية من آيات الله.

قال تعالى:

﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1].

والمراد بهذه الآية أن الله سبحانه وتعالى إذ يتوفى الأنفس معنى ذلك أنه يقبضها عن أبدانها حين موتها، بحيث لا يستقدمون عنه ساعة من الزمن ولا يستأخرون وهذا هو الموت أي النوم الأكبر كما يتوفى الله أيضاً الأنفس التي لم تمت في نومها أي أنه سبحانه وتعالى يتوفى هذه الأنفس في وقت نومها حيث يقطع تعلق الأرواح بالأبدان حتى لا تتصرف فيها إلا بقدر. وهكذا نجد أن توفيها حين الموت إنما هو قطع لتصرف البدن في حركاته الظاهرة والباطنة وهو انقطاع مطلق لا رجوع فيه، بينما حين يتوفاها الله في النوم الأصغر فإن الانقطاع الذي يتم إنما هو انقطاع ظاهري ولوقت محدد، ثم تعود الروح بعد ذلك إلى الجسم، ففي النوم الأكبر يمسك الله التي قضى عليها بالموت، وفي النوم الأصغر يرسل الروح إلى أجل مسمى، فالنوم إذن إنما هو انطلاق للروح مؤقت ثم تعود وتتكرر العملية إلى أن تخرج الروح ولا تعود وبهذا يكون الموت، وتنتقل النفس من حياة الدنيا التي كانت تعرفها، وتدرك أبعادها إلى حياة لا يعرف أحد حقيقتها إلا في حدود ما أخبر به القرآن، فهي حياة من عالم الغيب لا يمكن إدراك وقائعها، لأنه ما من أحد مارس عليها التجربة بالذهاب إليها ثم بالعودة منها، فمن ذهب فقد ذهب نهائياً عن هذه الدنيا ويتساوى مع من ذهبوا من آلاف السنين، ولا يعود إلا حيث يبعث من جديد يوم القيامة. فالإنسان إذن على هذا الأساس مكون من جسد وروح، وإذا كان أمر الجسد ظاهراً علينا وقد توصل العلم إلى إدراك كنهه ومقوماته الإنمائية وتركيبه من عظام وعضلات وأعصاب ودم وخلايا وأنسجة وعناصر عضوية ومعدنية، من حديد ورصاص وكربون

(1) سورة الزمر، الآية: 42.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وآزوت وكالسيوم وبوتاسيوم وصوديوم إلى غير ذلك من عناصر التراب، فإن الروح بقيت عالماً مجهولاً بالنسبة للإنسان لا يمكن معرفة كنهها إنما جل ما نعرفه عنها أنها القوة الخفية التي يحكم بوجودها على أن الإنسان حي وبذهابها يكون الإنسان ميتاً.

هذا وقد لخص الإمام الأصفهاني وضع الإنسان وخلقه وسلوكه في الحياة إلى أن يتوفى بمراحل كما ذكر العناصر التي منها وجد الإنسان فقال: (ذكر الله تعالى العناصر التي خلق منها آدم عليه السلام ونبه على أنه جعله إنساناً في سبع درجات، وأشار إلى ذلك في مواضع مختلفة حسب ما اقتضته الحكمة فقال في موضع خلقه من تراب إشارة إلى المبدأ الأول وفي آخر من طين إشارة إلى الجمع بين التراب والماء. وفي آخر من حمأ مسنون إشارة إلى الطين المتغير بالهواء أدنى تغير. وفي آخر من طين لازب إشارة إلى الطين المستقر على حاله من الاعتدال يصلح لقبول الصورة. وفي آخر من صلصال من حمأ مسنون إشارة إلى يبسه وسماع صلصلة منه. وفي آخر من صلصال كالفخار وقد أصلح بأثر من النار وسماع فصار كالخزف... ثم نبه الله على تكميل الإنسان بنفخ الروح فيه فقال:

﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾[1].

فهذه سبع درجات نبه عليها كما نرى، ثم دل على تكميل نفسه بالعلوم والآداب بقوله تعالى: ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾ ثم ذكر خلق بني آدم وعناصرهم التي أوجدها حالة بعد حالة فنبه على أنه جعلهم أناساً في سبع درجات حسب ما جعل آدم عليه السلام فقال تعالى:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا

(1) سورة ص، الآية: 71 ـ 72.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾[1].

أشار به إلى ما جعل له من قوة العقل والفكر والنطق. فإن قيل كيف حكم على جميع الناس أنه خلقهم من سلالة من طين والمخلوق منها هو آدم دون أولاده. قيل إن ذلك على وجهين:

أحدهما: أنه لما خلق آدم من سلالة من طرين فأولاده الذين منه هم أيضاً منها.

الثاني: إن الإنسان يتكون من النطفة ويتربى بدم الطمث.

ثم يستمر الأصفهاني ليبرهن على أن خلق الإنسان من سلالة من طين فيقول:

وهما يتكونان من الغذاء، والغذاء يتكون من الحيوان، والحيوان من النبات، والنبات من سلالة طين، فإذا الإنسان على الحقيقة من سلالة من طين وعلى هذا نبه الله تعالى بقوله:

﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا﴾[2].

وقوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾[3].

وقوله: ﴿خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾[4]. فجعله الله تعالى من

---

(1) سورة المؤمنون، الآية: 12 ـ 14.

(2) سورة عبس، الآية: 25 ـ 26 ـ 27 ـ 28.

(3) سورة المؤمنون، الآية: 12 ـ 13.

(4) سورة فاطر، الآية: 11.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تراب على هذا الوجه وقال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾[1]، وفي آخر خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، وعنى بالإنسان ههنا آدم ولذلك قال ثم جعل نسله فاقتصر ههنا على النطفة دون المبدأ الأول الذي هو التراب[2].

فالإنسان الذي خلقه الله من تراب بمعنى أنه خلق من جماد ميت قال تعالى:

﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ﴾[3]. أي حيث كان تراباً وطيناً وصلصالاً ثم يصير نباتاً كما قال تعالى:

﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾[4].

هذا الإنسان يتصف بعدئذٍ بطبائع خلقها الله فيه فحيث كان نطفة وعلقة ومضغة معنى ذلك أنه اكتسب بهذا الخلق الصفة الحيوانية فيتبع بطبعه بعض ما ينقصه ويحترز ويبتعد من بعض ما يضره، ثم يصير إنساناً مختصاً بالأفعال الإنسانية وقد نبه الله سبحانه وتعالى على ذلك بقوله: ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾[5].

طبيعة خلق الإنسان وسلوكه:

إن الإنسان بطبيعة خلقه وجدت فيه قوى متنازعة. فأول ما تظهر فيه قوة النزاع الموجودة في النبات والحيوان، كما تظهر فيه قوة الاندفاع نحو الموافق ودفع المخالف. كما تظهر فيه قوة النزاع بين الحسن والقبح وبين الخير والشر فيأخذ ما يوافقه ويدفع عن نفسه ما لا يوافقه فتكون لديه مقومات ليقدر بها على الاختيار وعلى هذا يكون لديه الحس والتخيل

(1) سورة الروم، الآية: 20.

(2) الراغب الأصفهاني - «تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين، ط 1323، ص 19 - 20.

(3) سورة البقرة، الآية: 28.

(4) سورة نوح، الآية: 17.

(5) سورة الكهف، الآية: 37.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والتصور والتفكر ثم العقل، فهو والحالة هذه لم يصر إنساناً على الوجه المقصود إلا بالفكر والعقل الذي به يميز بين الخير والشر وبين الجميل والقبيح وهذه القوى تبعاً لاستعمالها والعمل بمقتضاها أو الابتعاد عنها تحدد طبيعة وسلوك الإنسان، فالله سبحانه وتعالى إذن خلق الإنسان وزوده بالمقومات الضرورية التي تحقق له التصرف تبعاً لاختباره واستعماله لهذه المقومات وقد أحسن تصويره على هذا الأساس فقال تعالى:

﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾[1].

وهكذا نجد أن الإنسان بفعله واختياره يصير مركزاً للحكمة ومعدناً للعلم بوجود العقل فيه ابتداءً وهو الأساس في إسعاد نفسه أو شقائها في الدنيا والآخرة.

وإذا كانت نفس الإنسان على ما ذكرناه واقعة بين قوتين قوة الشهوة وقوة العقل فإننا نجد أنها بطبيعة قوة الشهوة تتجه نحو تناول اللذات البدنية من طعام وشراب وسائر اللذات العاجلة الحيوانية كما أنه بقوة العقل يحرص الإنسان على تناول العلوم النافعة والأفعال الجميلة والأمور المحمودة، وبهذا نلاحظ أن طبيعة الإنسان تتحرى ما فيه اللذات تبعاً لطبيعتها الحيوانية وتقدم عليها سواء كانت من المحسوسات أو المذوقات أو الملموسات أو المسموعات أو المبصرات كما تتحرى تبعاً لصفتها وطبيعتها العقلانية اللذات الروحية والفكرية والإنسانية كلذة العلم وعمل الخير وفعل الحسن.

ومع ذلك فإن الإنسان يندفع نحو اللذات المحسوسة وهي التي تغلب على سلوكه، وذلك لأنها موجودة في الطبيعة الإنسانية من قبل، وهي نزاعة إليها قال تعالى:

﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ﴾[2].

من هذا المنطلق تجنح النفس إلى الهوى وتتثاقل أو تكره ما يأمر به العقل أو يحض عليه، وقد قيل: «العقل صديق مقطوع والهوى عدو متبوع»

---

(1) سورة غافر، الآية: 64.

(2) سورة القيامة، الآية: 20 ـ 21.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولهذا نجد طريق الخير محفوفاً بالمكاره، بينما نجد طريق الشر محفوفاً بالشهوات، وأنه لا يسلك الإنسان طريق الخير أو ينقاد إلى ما فيه مصالحة الخيرة إلاّ بضرب من القهر، تبعاً للقوى المتنازعة في النفس، قوى الخير وقوى الشر، لذلك كان على الإنسان أن يجاهد هواه إلى أن يتم له التغلب على العقبة، فينجو مما فيه أذىً لنفسه إلى ما يحقق فيه السعادة يوم القيامة لأن النفس بطبيعتها لها نظرتان نظرة إلى فوق وهي نظرة نحو العقل والحكمة والتي منها تستمد الخير وتتجنب الشر، ونظرة إلى تحت وهي نظرة نحو الهوى فتألف الخسيسات من الأفعال ورذائل الأعمال وإذا كانت النفس مزودة بالعقل المستمد من الشرع عملت بما يأمر به الشرع، وبهذا تكون النفس عالية راضية مرضية وقد تزودت من دنياها لآخرتها عملاً يرضي الله، وإن كانت النفس دنية اتبعت هواها وأكثرت من الميل والانقياد إلى الشهوات فيستعبدها الهوى وتضل سواء السبيل وتذعن إلى الشهوات، قال تعالى:

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾[1].

هذا الصنف ختم الله على سمعه حتى لا تصل إليه موعظة، وجعل على بصره غشاوة تمنعه من الإبصار، فمن حاله هذا كيف يهتدي؟ والمراد بالمعنى العام لهذه الآية أن من اتخذ إلهه هواه أي ترك متابعة الهدى وطاوع النفس والهوى، فحال هذا تدعو للعجب، وقد ذم القرآن دائماً من يتبع هواه، وما على الإنسان إلا أن يهدف إلى اتباع الهدى لأن النفس الإنسانية بطبيعتها دائماً تدعو إلى الشر، وتهدف إلى الضار والإنسان يهوى ما فيه ضرراً وضعة قال تعالى:

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾[2].

وقال تعالى:

﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾[3].

---

(1) سورة الجاثية، الآية: 23.

(2) سورة الأعراف، الآية: 176.

(3) سورة الروم، الآية: 29.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فالمؤمن إذن هو الذي يتبع ما أمر الله به ويبتعد عن هواه الضال. قال رسول الله ﷺ:

«لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به».

فالخير إذن في الابتعاد عن هوى النفس واتباع طريق الهدى الذي نزل على الرسول ﷺ وهذا بلا شك يقتضي التوفيق والهداية من الله، وهو الهادي إلى سواء السبيل وهو نعم المولى ونعم النصير.

فالإنسان حتى يكون من الصنف الذي يتبع طريق الهدى هوالإنسان بالمعنى الخاص الذي يعرف الحق ويتبعه ويعرف الخير فيعمل به ما في وسعه، ومع ذلك فإن هذا الصنف من الناس يتفاوتون في عملهم الخير تبعاً لمن يكون أكثر إنسانية وفعالية للخير، فالأكثر خصوصية هو المرتسم لأوامر الله تعالى والذي ليس لأحد عليه سلطان إذ الله سبحانه هو الذي يدفع عنهم كيد الشيطان ويعصمهم من إغوائه قال تعالى:

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾[1].

فالإنسان بالمعنى العام هو الإنسان الذي يتصف بالصفات العامة من انتصاب القامة والضحك والصورة المعقولة والروحانية والتمتع بالعقل والفكر والرؤية والنطق وخاصة الاستفادة من العلم، وفي ضوء استعمال هذه المقومات للخير والحق يتفاوت الناس أيضاً فالعبرة لا بوجود الصفات العامة بل باستعمال هذه الصفات والمقومات للإنسان فالسمع والبصر واللسان حواس حيوانية قائمة إنما العبرة باستعمالها والعمل بالمقصود من وجودها فيسمع الإنسان ويتبع الحقائق فمن له السمع عليه أن يسمع المعقولات ومن له البصر عليه أن يبصر الحقائق التي بها يدرك الاعتبارات الإنسانية والشرعية التي أمر الله بها، وإلا كان كمن وصفهم الله سبحانه حيث قال:

﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[2].

---

(1) سورة الإسراء، الآية: 65.

(2) سورة البقرة، الآية: 171.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقال تعالى:

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[1].

هؤلاء على الرغم من وجود العقل فيهم إنما طغى الهوى عليهم لهذا كان حق العقل أن يتقوى على قوى النفس وأن لا يداهنها وتقوية العقل تكون بالإيمان، وبتقوى الله والاستعاذة به، كما أن حق العقل أن يستعيذ من الهوى والشره والحرص والأمل وأن يطهر نفسه من كافة القوى الرديئة إذ القوى الرديئة والإرادات الضعيفة أمام الهوى تقود الإنسان إلى اتباع المفاسد فتستهويه المعاصي، هؤلاء يتبعون خطوات الشيطان ولهم مقام علوم وقد نبّه الله سبحانه وتعالى إلى ذلك فقال:

﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾[2][3].

ومن هنا يظهر الفضل والتفضيل بين الناس قال تعالى:

﴿انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ﴾[4].

هذا وقد وصف الراغب الأصفهاني الناس تبعاً لسلوكهم في طاعتهم أو معصيتهم أو ترددهم فقال: «والناس فيما أمروا به وكلفو بين مطيع وعاص فهم على القول المجمل ثلاثة أضرب:

ضرب أخلوا وانسلخوا عما خلقوا لأجله واتبعوا خطوات الشيطان وعبدوا الطاغوت.

وضرب وقفوا بغاية جهدهم حيثما وقفوا كالموصوفين بقوله تعالى:

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾[5].

---

(1) سورة الفرقان، الآية: 44.

(2) الراغب الأصفهاني، المرجع السابق ص 35.

(3) سورة الإسراء، الآية: 48.

(4) سورة الإسراء، الآية: 21.

(5) سورة الفرقان، الآية: 63.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وضرب ترددوا بين الطريقين كما قال الله تعالى:

﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾[1][2].

هذا ولا شك أن لكل فئة من هؤلاء حساباً من ثواب أو عقاب تبعاً لسلوكهم في الحياة الدنيا حيث تحدد المساءلة ويتحدد العقاب والثواب تبعاً لرجحان الحسنات أو السيئات. «فمن رجح حسناته على سيئاته فموعود بالإحسان إليه. وعلى الأنواع الثلاثة دل الله تعالى بقوله:

﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً * فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾[3][4].

وعلى هذا أقسم الله تعالى في آخر السورة فقال:

﴿فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ * وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ * فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾[5].

وهكذا نجد أن جميع القوى في النفس يسيطر عليها العقل، فالإنسان إذن في سلوكه يكون رائدة العقل بما أمر الله به، فهو السائس لسائر قوى النفس وما عليها إلاّ أن تطيعه وفي ضوء هذا يتفاوت الناس في السلوك من حيث الخير أو الشر ومرد ذلك اتباع العقل أو اتباع الهوى ولهذا حصل التفاوت في النفوس، وإلى هذا نبّه الله سبحانه وتعالى بقوله:

---

(1) سورة التوبة، الآية: 102.

(2) الراغب الأصفهاني - «تفضيل النشأتين وتحصيل السعادتين»، ط 1323 هـ، ص 43.

(3) سورة الواقعة، الآية: 7 - 11.

(4) الراغب الأصفهاني، المرجع السابق، ص 43.

(5) سورة الواقعة، الآية: 88 - 94.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾[1].

ومع ذلك فإن تفاوت قوى النفس جعل كل واحدة تختلف في مركزها وسلطانها عن الأخرى بمعنى أن هذا التفاوت يجعل من حق كل واحدة منها أن تكون تحت سلطان ما فوقها وآمرة على ما دونها. ومع هذا التفاوت يقوم الصراع في نفوس الناس وينعكس بصور عديدة منها مثلاً معاداة أهل الشر لأهل الخير، كما ولا ينفك أشرار العالم أن يعيثوا في العالم الفساد ويعادوا الأخيار تلك هي طبيعة النفوس البشرية تبعاً لتغلب قوى على أخرى. على أنه إذا كان هناك قوى رادعة فتكون الغلبة لها تبعاً للقواعد الطبيعية والأسس المنطقية فمثلاً نلاحظ أنه «من حق القوى الشهوانية أن تكون مؤتمرة للقوة الغضبية، وحق القوة الغضبية أن تكون مؤتمرة للقوة العاقلة، وحق القوة العاقلة أن تكون مستضيئة بنور الشرع ومؤتمرة لمراسمه حتى تصير هذه القوى متظاهرة غير متعادية كما قال تعالى:

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَٰرُ﴾[2].

كذلك في نفس الإنسان قوى رديئة من الهوى والشهوة والحسد تطلب الفساد وتعادي العقل، والفكر، كذلك يجب للعقل، والفكر أن لا يعتمد القوى الذميمة وأن يعادي الهوى فإن الهوى من أعداء الله، بدلالة قول النبي ﷺ: «ما في الأرض معبود أبغض إلى الله من الهوى» ثم تلا ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَىٰهُ﴾[3]، وكما أن من استحوذ عليه الشيطان أنساه ذكر الله كذلك العقل إذ استحوذ عليه الهوى... فصار الناس في ذلك بين ثلاثة أصناف:

1 ـ صنف لم يفعل ما أمر الله به وتهاون فيما فوض أليه.. فصار عند نفسه ملوماً مخذولاً.

---

(1) سورة الزخرف، الآية: 32.

(2) سورة الأعراف، الآية: 43.

(3) سورة الجاثية، الآية: 23.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

2 ـ صنف فعل ما أمر الله به فصار عند ربه مأجوراً مشكوراً.

3 ـ صنف جد تارة وقصر تارة فهو كما قال تعالى:

﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾[1].

فمن وفق لفضل ما أعطى ولما رشح له وأعد ثم سعى في مثاله فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولو الألباب[2].

(1) سورة التوبة، الآية: 102.

(2) الراغب الأصفهاني، المرجع السابق، ص 34 ـ 36.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثاني

الهدف من خلق الإنسان

العبادة والإنسان:

خلق الله الإنسان في هذا الكون تبعاً لحكمة، وغرض سام وغاية نبيلة بقصد صلاحه وصلاح الناس جميعاً، فأرسل له الرسل مبشرين ومنذرين داعين الناس جميعاً، إلى العقيدة والدين الحنيف، بالحكمة والموعظة الحسنة، يستقيم سلوكهم باتباعهم سواء السبيل، وهو الطريق الذي رسمه الله في شرعه، وهو الطريق الوحيد الذي تستقيم به النفوس وتعلو مراتبها هذا الطريق من مقتضاه الإيمان بالله واليوم الآخر وما تقتضيه العقيدة من السلوك العملي من معاملات وعبادات بحيث يدرك الإنسان أنه في هذه الدنيا مكلف ومستخلف في الأرض قال تعالى:

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1].

والمراد بذلك أن الله سبحانه إذ خلق الخلق فقد خلقهم صالحين للعبادة، مستعدين لها بما متعهم من العقول والحواس التي تدعوهم إلى عبادته إذ إن أفعال الله سبحانه وتعالى ليست عبثاً، إنما ترمي إلى غايات كاملة سامية لهذا فإنه قد جعل خلقه يهدف إلى غاية وهي العبادة الاختيارية التي يوصف بها المؤمنون وإن كان يوجد بين خلقه من لا يصل إلى هذه الغاية فإن هذا يحاسب عليه يوم القيامة بما ظلم به نفسه:

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾[2].

---

(1) سورة الذاريات، الآية: 56.

(2) سورة الذاريات، الآية: 60.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فعبادة الله في الدنيا هي السبيل التي تصقل سلوك الناس وتزن علاقاتهم بميزان الشريعة، فعليك أيها الإنسان أن تعبد الله كأنك تراه وتعلم أنك إن لم تكن تراه فإنه يراك، وبهذا تراقب نفسك في سرها وعلنها، فتدرك بذلك أنه مطلع على جميع تصرفاتك. وبهذا يصلح حالك ويستقيم سلوكك.

وبهذا السلوك ندرك أيضاً أنك مستخلف في الأرض عملاً بقوله تعالى:

﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[1].

وقال تعالى:

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾[2].

فالخليفة في الأرض هو من يقوم بعمارتها، وأن الإنسان هو الأصلح لعمارتها باتباع ما أمر به الله والانتهاء عما نهى عنه. وقد وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليجعلهم خلفاء الله في أرضه وهذا الوعد مشروط بالإيمان والعمل الصالح فإن تحقق الشرط تحقق المشروط، وبهذا الاستخلاف يمكن لهم دينهم ويبدلهم من بعد خوفهم أمناً. وبهذا يتعزز جانبهم وتقوى حجتهم في دين الله، فيقبلون عليه بنفوس آمنة مطمئنة اشتراها الله لتكون لهم الجنة فيجاهدون في سبيله بأموالهم وأنفسهم لرفع حكمته ونصرته وابتغاء رضوانه. وبهذا يكون قد تحقق ما وعد الله به قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[3].

وقال تعالى:

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾[4].

---

(1) سورة البقرة، الآية: 30.

(2) سورة النور، الآية: 55.

(3) سورة محمد، الآية: 7.

(4) سورة الحديد، الآية: 25.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾[1].

هذا وباستخلاف الإنسان في الأرض زوده الله بمقومات ليعمل على تحقيق السعادة في الدار الآخرة. لهذا أوجد له ما يحتاجه في الدنيا من صناعات ومهن وعلوم وما يحتاج هذه من عناصر يتهيأ بها العمل واستعمله لها، كما جعل الله للإنسان مراتب ومقامات معلومة تبعاً لعبادته قال تعالى منبهاً إلى ذلك.

﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾[2].

وقوله تعالى:

﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾[3].

وقوله تعالى:

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[4].

فالإنسان إذ خلق في هذا الكون لطاعة الله وعبادته فقد حدد له مقام معلوم تبعاً لهذه العبادة، لا يستطيع أن يتعداه أو يتجاوزه خضوعاً واستسلاماً لقضاء الله، وتواضعاً لجلاله، والله سبحانه وتعالى يحكي عن هؤلاء العابدين أنهم الصافون أنفسهم للعبادة فلا يتقدم أحد ولا يتأخر عن صنعته، ثم وصفهم الله بأنهم المسبحون والمنزهون الله عما وضعه المشركون، ومن هنا جاء تفضيل الناس تبعاً لطاعتهم وعبادتهم وسلوكهم وأخلاقهم فالتفضيل ورد إذن على سبيل الإطلاق، إذ ليس من المعقول أن يتساوى من كان يريد عرض الدنيا ويحب العاجلة مع من كان قصده الآخرة أرادها وسعى لها سعيها، لما لها من فضل وثواب ولا شك أنه لا يمكن أن تقوم المقارنة، أو أن المقارنة مع الفارق الكبير، فمن قصد الآخرة واتجه في كل عمل إليها،

---

(1) سورة الصف، الآية: 14.

(2) سورة الإسراء، الآية: 84.

(3) سورة الصافات، الآية: 164.

(4) سورة الإسراء، الآية: 21.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكان رائده في هذا الثواب في الآخرة، لا متاع الدنيا، فقد فاز فوزاً عظيماً، وهذا هو السعي المشكور والعمل المأجور وكل ما عدا هذا فهو عرض زائل لا خير فيه. ومع ذلك فإن الله سبحانه وتعالى يمد الناس بالرزق والعطاء سواء ممن كان يريد الدنيا أوممن يريد الآخرة، إذ كل ميسر لما خلق له حتى في سلوكه ولم يبق إلا عنصر الاختيار فهو المحاسب عليه طالما أنه ممتع بالقدرة الصالحة للعمل وإلى هذا أشار الله سبحانه وتعالى فقال:

﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾[1].

ثم قال تعالى:

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ﴾[2].

والتفضيل هنا يكون بالرزق وبمتاع الدنيا أما التفضيل في الاخرة، فهو أعلى مراتب التفضيل لما فيها من نعيم مقيم وعطاء جزيل لهذا قال تعالى:

﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾[3].

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد خص عباده بالرحمة وفضلهم على سائر المخلوقات بتكليفهم بعبادته ضماناً لتقويم سلوكهم وإكراماً لهم بالثواب يوم الآخرة ومع ذلك فإن فضل الله لم يقتصر على هذا فحسب بل إنه سبحانه قد أوجد كل ما في هذا العالم لخدمة الإنسان وتحقيق حاجاته، بل ورفاهيته ورزقه.

قال تعالى:

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً

---

(1) سورة الإسراء، الآية: 20.

(2) سورة الإسراء، الآية: 21.

(3) سورة الإسراء، الآية: 21.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾[2].

وقال تعالى:

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[3].

فالله سبحانه وتعالى إذ خلق هذا الكون وسخره لعباده إنما أمرهم بعبادته والإقرار بربوبيته ووحدانيته إذ إن غاية العبادة تحقيق التقوى التي أحبها الله وارتضاها لهم لهذه الغاية وبهذا الهدف خلق لعباده هذه السموات والأرض مسخرات لهم حيث جعل الأرض ممهدة مذللة لهم للإقامة عليها والعمل فيها كما جعل السماء كالبناء المحكم فوقها وخلق فيها من عوالم الأفلاك والمجرات والكواكب، كل ذلك بنظام دقيق قائم على التوازن بحيث لا تسقط، وتكريماً لبني آدم أيضاً أنزل الله من السماء ماء وأخرج به من الثمرات والخيرات رزقاً لعباده وهذه كلها مظاهر قدرته ووحدانيته. فسبحانه وتعالى هو صاحب الفضل على خلائقه والمنعم على عباده، إذ سخر ما في السموات والأرض بما أودع الله في الإنسان من عقل وتفكير يستطيع أن يستخدم الطبيعة، ويستفيد من طاقاتها لأغراضه ومنافعه، سواء في السماء أو في الأرض، أو في البحار، حيث استخدم الإنسان الأثير والذّرة والطائرة

---

(1) سورة البقرة، الآية: 22.

(2) سورة النحل، الآية: 10 ـ 11 ـ 12.

(3) سورة الجاثية، الآية: 13.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والغواصة والتلفزة وغير ذلك من الوسائل الكهربائية والتكنولوجية والالكترونية والتي تخدم الإنسان والتي ستكشف الأيام عن غيرها أيضاً في المستقبل. فالدنيا وما فيها من طاقات وأنظمة وخفايا لم تخلق بالصدفة إنما خلقها الله سبحانه وتعالى وأقامها بإرادته وقدرته، فالسماء بناها ورفعها بلا عمد ويمسكها من أن تقع على الأرض إلا بأمر منه قال تعالى:

﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

هذا كما أن الكون وما فيه لا يمكن أن يسير لوحده تلقائياً إنما هو بتدبير حكيم قادر دبرّه بما يدعو إلى النظر والتفكير فيه، لما فيه من دقة ونظام، نعمة الله التي أنعم بها على البشر الذين أحياهم من العدم ثم يميتهم بانقضاء أجلهم حيث ينقلهم من دار الفناء إلى دار البقاء ويوم القيامة يحاسبهم فينالون جزاءهم الأوفى تبعاً لعملهم من خير أو شر، ومع ذلك يبقى الإنسان كنوداً جاحداً نعمة ربه ولا يقوم بشكرها إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وشكروا الله فأولئك جزاؤهم عند ربهم، قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾[2].

فسلوك الإنسان يقتضي أن يكون تبعاً لما يرضي الله عنه، حيث حقق للناس الخيرات وجعل لهم في الحياة ما ينتفعون به، فأباح لهم تحري مصالحهم، إذ نبه الله تعالى على منافع جميع الموجودات وأطلع الخلائق عليها لينتفعوا بكل ما في العالم في غذائهم ودوائهم، وملابسهم، ومشموماتهم، ومنظوراتهم، وكل ما فيها من طيبات الرزق، وليستفيدوا من العلم وليقتدوا بالأفعال الحسنة وليتجنبوا الأفعال السيئة فالله إذ خلق هذه النعم وهدى إلى تعلمها وطرق صنعها، وغرز في الناس حب الزينة والتمتع بالخيرات إنما خلقها للاستفادة منها والاستعانة بها على تقوية الجسم للقيام بعبادة الله. هذه النعم يقتضي الانتفاع منها في حدود إشباع الحاجات دون

(1) سورة الحج، الآية: 65.

(2) سورة العاديات، الآية: 6.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تبذير، إذ الإسراف في الطعام والشراب أو الملبس فيه ضرر وإهدار للطاقات الاقتصادية بل وحرمان للغير من التمتع بها.

وإذا كان الإسراف غير مقبول فكذلك التقتير أيضاً غير مقبول فإن التقشف والزهد المبالغ فيه غير مستحب، قال تعالى مشيراً إلى إنكار ذلك:

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[1].

وإلى هذا أشار الحديث الشريف إذ روى النسائي وابن ماجه عن النبي ﷺ قال:

«كلوا واشربوا وتصدقوا والبسوا في غير مخيلة[2] ولا سرف فإن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده».

وهكذا نجد أن الدين الإسلامي الحنيف يدعو إلى الكمال الروحي والسمو الأخلاقي والاعتناء بالجسم وإزكاء النفس بالطيبات تبعاً لما تميل إليه بطبيعتها، كل ذلك في حدود ما أحل الله.

هذه الحاجات إنما فيها مصلحة الإنسان، وقد أوجدها الله وهدى الإنسان إليها قال تعالى:

﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[3] إنها نعم يعرفها الإنسان بعقله وإدراكه وحواسه وهو إذ يعرف مبادىء العلوم بالفكر فلا شك أن يتوصل عن طريق المعلوم إلى استنباط الأمر المجهول طالما أن الله وكله إلى نفسه للبحث إلى ما هو بحاجة إليه لإيجاده وتحصيله بقوى نفسه، فيتحصل على الملابس يكسو بها نفسه، ويتقي بها الطقس من الحر والقر، كما يحصل على الغذاء ليقيم به أوده ويقوي به جسمه كما يبحث عن الأسلحة المختلفة ليذود بها عن نفسه فيدفع عنها الأذى ويحمي مصالحه. وبهذا نلاحظ أن

---

(1) سورة الأعراف، الآية: 32.

(2) مخيلة الإعجاب بالنفس.

(3) سورة طه، الآية: 50.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الإنسان قد رفعه الله عن ضعف الحيوانات بإعطائه العلم والعقل واليد العاملة، إذ أعطاه كل شيء ليأتلف مع وجوده في هذه الدنيا، ويتمكن من تحصيل ما يريد لإشباع حاجاته كل ذلك تحت رقابة العقل وفي إطار الدين الذي يبيح له ذلك. إنها السلوك الحسن الذي يهدف إلى تحقيق السعادة.

إذ بهذه القوى التي تحفظ عليه نفسه وجسده وبهداية من الله يحقق ما يرضي الله من عبادة وتقوى، إذ هي الغاية المقصودة والأوامر المطلوبة لتحقيق الدين القيم بأوامره ونواهيه قال تعالى:

﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾[1].

هذا الدين الإسلامي الذي يأمر بالعبادة والتقوى هو دين الأمة دين الأخلاق الذي يقود الإنسان إلى الحق والخير فهو دين السلوك الذي يحقق السعادة في الدنيا والآخرة، وقد وعد الله الذين آمنوا بالله وبرسوله وصدقوا بما عاهدوا الله عليه. فأولئك هم خير البرية وكان جزاؤهم عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها.

العبادة طريق السعادة إلى الآخرة:

عرفنا فيما سبق أن المقصود من خلق الله للعالم إيجاد الإنسان وتكريمه وتفضيله على كثير ممن خلق فالله إذ خلق الإنسان خلق له الروح الناطقة والتي يتوصل بإيفائه حق خلق الله له إلى النعيم المقيم قال تعالى:

﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا﴾[2].

هذا التفضيل لم يكن مرده إلى عناصر خلقه فقط بل إلى ما خصه الله تعالى له وبما ضمنه فيه. إذ نفخ فيه من روحه ورشحه إلى أمر هام إذ جعله

---

(1) سورة البينة، الآية: 5.

(2) سورة الإسراء، الآية: 70.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

خليفة في الأرض قال تعالى:

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾[1].

كما أن هذا التفضيل نبه الله سبحانه وتعالى إلى أهميته عندما طلب إلى الملائكة أن يسجدوا لآدم فأذعنوا إلى أمر الله وسجدوا كما أمروا إلا إبليس أبى واستكبر قال تعالى﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾[2].

ومن الجدير بالإشارة أن السجود المطلوب لم يكن سجود عبادة إنما سجود تحية وتكريم بأمر الله، وله جل شأنه أن يكرم من يشاء من مخلوقاته على من يشاء. إذ إليه يرجع الأمر كله فيما خلق وكيف خلق ولماذا خلق! فالإنسان إذ خلقه الله من مادة وروح - ولئن كانت الروح سراً من أسرار الله تدخل في عالم الغيب إذ لا يعلم كنهها إلا خالقها - بيد أنها مع ذلك هي الأساس في تحقيق السعادة، فهي قوة الإنسان وفعاليته ولها الأثر الكبير في سلوكه وأعماله، فهي مصدر الخير والهدى والتقوى والفلاح، وبها تتحقق العبادة التي هي طريق السعادة إلى الآخرة طالما أن الإنسان مؤمن وقائم على تحقيق أركان الدين الحنيف من إيمان بالله وبرسول الله ﷺ وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وحج البيت متى استطاع إلى ذلك سبيلاً.

أما الروح التي يتمتع الإنسان بها بوجوده فهي الحياة التي عناها القرآن بقوله تعالى:

﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾[3].

فالحياة لا تكون إلا بالأيمان، فالمؤمن يسعى نوره بين يديه فهو الموفق إلى الخير والهدى، وهو الذي يميز بين الحق والباطل كل هذا بفضل

---

(1) سورة الحجر، الآية: 29.

(2) سورة البقرة، الآية: 34.

(3) سورة الأنعام، الآية: 122.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الإيمان الذي هو نور يستضيء الإنسان به في حياته، فيميز به الخير والشر، فهو كالروح التي تعطي الحياة وتحقق السعادة، بينما الضلال كفر وفساد يستقر بصاحبه في الظلمات الحسية وليس بخارج منها، وهكذا نجد الفارق الكبير بين الإيمان والكفر كالفارق بين الحياة والموت.

وعلى هذا نجد التفاوت في السلوك بين البشر تبعاً للعقائد بينما هم متساوون في خلقهم تبعاً لحكمة الله إذ خلق الناس على هيئة واحدة من حيث إنها مصنوعة قال تعالى:

﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾[1].

هذا البشر متساوٍ في الخلقة إنما هو في الوقت ذاته مختلف فيما خص الله به كل نوع من مخلوقاته بصفات وفوائد، وعلى هذا نجدهم مختلفين في سلوكهم الأخلاقي، وفي عقيدتهم، وطاعتهم أو معصيتهم إذ منهم المطيع ومنهم العاصي، ومن هذا جاء اختلاف المقامات وارتفاع الدرجات.

قال تعالى:

﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾[2].

أي أن ارتفاع الدرجات يكون في الفضل والجاه والإكرام تبعاً لحكمة الله سبحانه وتعالى، شأنه في رفع الدرجات كشأنه في تقسيم الرزق على عباده. فمنهم الفقير، ومنهم الغني عملاً بقوله:

﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[3] فالمنع والعطاء في هذه الدنيا ليس هو الغاية، لأن هذه الدنيا ليست بدار قرار إنما العبرة بالآخرة فالآخرة خير وأبقى، والجنة ونعيمها أعدت عند ربك للمتقين.

قال تعالى:

---

(1) سورة الملك، الآية: 3.

(2) سورة الزخرف، الآية: 32.

(3) سورة الزخرف، الآية: 32.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾[1].

وعلى هذا نجد الناس نوعين نوع مادي يسلك في حياته مسلك من يحقق المنفعة له في الدنيا فهو محب له حباً جماً فهذا الصنف يأكلون التراث أكلاً لماً، ويبخلون في الدنيا بل قد لا يعطون شيئاً، وهؤلاء هم في الحقيقة فقراء في الدنيا وفي الآخرة. لهم جهنم يصلونها مذمومين من الله، مدحورين ومطرودين من رحمته. والنوع الآخر هو من آمن بالآخرة وسعى لها سعياً حثيثاً لما وعد الله المؤمنين بالسعادة فيها، وهؤلاء لا يبالون في الدنيا فإن أوتوا حظاً منها شكروا الله، وإن منعوا منه رضوا وصبروا على ما أقسم الله لهم. فالسعي المشكور والعمل المأجور الذي يحقق السعادة في الآخرة يقتضي أن يكون الإنسان في عمله في هذه الدنيا قاصداً رضاء الله وذلك وفقاً لما أمر به الشرع وهو نظام الاعتقاد الصحيح والأفعال المستقيمة والدال على مصالح الدنيا والآخرة ويتحقق هذا على الوجه التالي:

1 ـ أن يكون الإنسان مؤمناً بالله بشمولية الإيمان الواردة في القرآن وعاملاً بأحكامه.

2 ـ أن يراقب الله في كل عمل يقصده وأن يخلص فيه لوجه الله دون رياء أو نفاق.

3 ـ أن يكون رائده فيما يعمل ثواب الآخرة لا متاع الدنيا.

تلك هي مقومات الأعمال الخالصة لوجه الله وما عداها زائل ومتاع حائل لا غنى ولا خير فيه، فمن يسلك طريق السعادة إلى الآخرة وما فيها من نعيم مقيم وعطاء كريم يوفق بعون الله في سعيه ويكون بذلك من المرضين المشكورين عند الله قال تعالى:

---

(1) سورة الإسراء، الآية: 21.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾[1].

فإذا أدرك الإنسان هذه الحقيقة أدرك أنه في الدنيا مستخلف فيها وليس له بقاء إنما المقصود وجه الله، والهدف الاستقرار في دار الآخرة، فتهدأ نفسه ويطمئن قلبه ويعزف عن التهالك على الدنيا. ولا يرى أي ضرورة للتناحر والتباخل، فينفق مما جعله الله مستخلفاً فيه، فيؤدي زكاة ماله، ويتصدق بالفضل من أمواله، هذا السلوك يرفعه درجات عند الله سواء في العلم والعمل والغنى والفقر سنة الله في خلقه ليبلونا جمعياً فيما آتانا.

قال تعالى:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾[2].

فما على الإنسان إلا العمل والجد والصبر والرضا بقضاء الله وقدره فيعمل ويتوكل على الله فكل ميسر لما خلق له، وكل نفس بما كسبت رهينة، فالمال إلى الله قال تعالى:

﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[3].

مع ذلك نلاحظ أن الناس متفاوتون ومتباينون تبعاً لاختلاف الهمم والأغراض في صناعتهم فهم في حكم المختارين. هذا التباين قائم تبعاً لتكوينهم حيث تختلف طبقاتهم وقدراتهم وهممهم وأغراضهم وسلوكهم. ولا شك أن هذا الاختلاف مرده إلى عوامل كثيرة لها أثرها البعيد في سلوك الإنسان واختياره في أعماله وأفعاله وسلوكه، من خير أو شر بل في سعادته أو في شقائه هذه العوامل أشار إليها الإمام الأصفهاني وعدّدها وهي:

العامل الأول: اختلاف أمزجة الناس وتفاوت طينتهم إذ أشار الله تعالى

---

(1) سورة الإسراء، الآية: 19.

(2) سورة الأنعام، الآية: 165.

(3) سورة المائدة، الآية: 105.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إلى ذلك بقوله:

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾[1].

العامل الثاني: الوراثة إذ يرث الإنسان من أبويه صفاتهما فضلاً عن أن صلاح الأبوين له أثره في سلوك الإنسان بمعنى أن الابن يتأثر من جميل الخلق أو قبيحه.

العامل الثالث: اختلاف ما تتكون منه النطفة التي يتكون منها الولد ودم الطمث الذي يربى به وهذا له تأثيره على الإنسان. فالطيب لا يخرج إلا طيباً. قال رسول الله ﷺ منبهاً إلى ذلك: «تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس»، وقال: «الناكح غارس فلينظر أحدكم أين يضع غرسه».

العامل الرابع: اختلاف ما يتفقد به من الرضاع ومن طيب المطعم الذي تربى به وتأثير الرضاع تقول العرب لمن تصفه بالفضل لله دره.

العامل الخامس: اختلاف أحوالهم في تأديبهم وتلقينهم وتطبيعهم وتعويدهم العادات الحسنة والقبيحة فحق الولد على الوالدين أن يؤخذ بالآداب الشرعية وإخطار الحق بباله وتعويده فعل الخير كما قال النبي ﷺ: «مروهم بالصلاة لسبع واضربوهم لعشر» ويجب أن يصان عن مجالسة الأرداء فإنه في حال صباه كالشمع يتشكل بكل شكل يشكل به.. الخ.

العامل السادس: اختلاف من يتخصص به ويخالطه فيأخذ طريقته فيما يتمذهب به «عن المرء لا تسأل وأبصر قرينه».

العامل السابع: اختلاف اجتهاده في تزكيته نفسه بالعلم والعمل حين استقلاله بنفسه[2].

تلك هي العوامل الأساسية في تحقيق سلوك الإنسان، إذا توافرت على الوجه الطيب، سواء من طيب طيبة أو حسن أمزجة في أصوله، أو من آباء صالحين أحسنوا التربية أو بذرة طيبة ومن نطفة صالحة، ودم طمث طيب

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 6.

(2) تفضيل النشأتين، ص 49 ـ 50.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على مقتضى الشرع، وأقران صالحين يسارعون به نحو الخير ويبتعدون به عن الشر والأشرار، واهتداء بأوامر الشرع ونواهيه كان هذا من تمام الفضيلة وكمال الإخلاص مما يرتقي بالسلوك إلى مراتب الصالحين والمصطفين الذين قال عنهم الله عز وجل:

﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾[1].

هؤلاء بتربيتهم الصالحة وأصالتهم الطيبة وهم المخلصون في الطاعة والصادقون في العمل والمتذكرون دائماً لدار الآخرة والمؤملون بالفوز برضاء الله ولقائه هؤلاء هم المتقون الأخيار قال تعالى:

﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ * جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾[2].

وهكذا نجد أن السعادة إنما في الدار الآخرة والتي تبدأ طريقها من الدنيا بالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقضاء خيره وشره.. والعمل بمقتضى شرع الله وحسن تأدية فروضه وباتباع أوامره ونواهيه وبإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً. هذا هو طريق المؤمن من حيث أحواله فمن طالت أحواله انتفع بكل ما سمعه وشاهده إن خيراً فخير وإن شراً فشر. أما من خبثت أحواله فقد تضرر بكل ما سمعه وشاهده فيتبع طريق الضلال فيضلّ في الدنيا والآخرة قال تعالى فيمن لا يسمع هدى قرآنه:

﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ﴾[3].

فهؤلاء المعرضون الذين وصفهم الله في هذه الآية لا يؤمنون بكتاب الله وهم متعامون عن الحث على الرغم من أنه هدى وشفاء للصدور ورطب للقلوب. وهو يهدى للتي هي أقوم مبشر للمؤمنين ومنذر للكافرين فضلاً عن

---

(1) سورة ص، الآية: 47.

(2) سورة ص، الآية: 49 ـ 50.

(3) سورة فصلت، الآية: 44.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أنه سلوى للنفوس وعلاج لأمراض المجتمع قال تعالى:

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾[1].

وعلى هذا نجد أن الناس صنفان: صنف يريد عرض الدنيا ويبتغي السعادة فيها، هذه السعادة إن لم توصل إلى السعادة الأخروية فهي بسعادة مؤقتة وزائلة يغتر بها الإنسان ويحسبها دائمة وهي في الواقع كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً، وليس له منها إلاّ العذاب والغرور، قال تعالى في شأن هؤلاء المغترين الكافرين:

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾[2].

وقال تعالى:

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾[3].

فالسعادة المزعومة عند هؤلاء والذين يتمتعون بها في الدنيا إنما هي زائلة كالريح في يوم عاصف شديد لا يرون لها أثراً لأن أعمالهم مبنية على ضلال وكفر إذ العبرة بالأعمال أن تكون مما يرضي الله ويحقق أثرها في الآخرة بحيث يجزي المرء عليها الجزاء الأوفى أما الأعمال الباطلة فهي أعمال ضائعة وذاهبة، كذهاب الريح بالرماد عند شدة هبوبها قال تعالى:

﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾[4].

---

(1) سورة الإسراء، الآية: 82.

(2) سورة النور، الآية: 39.

(3) سورة إبراهيم، الآية: 18.

(4) سورة الفرقان، الآية: 23.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أي لا خير فيه ولا جزاء له فهو كالهباء ضائع منثور لا فائدة منه.

أما الصنف الثاني فهم الذين أنعم الله عليهم فأباح لهم السعادات التي توصلهم إلى الطمأنينة في الآخرة قال تعالى:

﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾[1].

وهذه هي النعم الدائمة والسعادة الحقيقية التي شرعها الله ومتع عباده بها ونفعهم في القيام بها فأحسنوا في الدنيا فقصدوا الآخرة، قال تعالى عن هؤلاء:

﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾[2].

وقال تعالى:

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[3].

هؤلاء الذين مكنهم الله في الأرض هم الذين يقيمون شعائر الله فينصرهم الله لنصرهم دينه واتباع أوامره والانتهاء عن نواهيه تلك هي السعادة الأبدية، وهؤلاء هم القدوة لأنهم طبقوا شعائر الإسلام من صلاة وزكاة وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر. هذه الأسس هي الركيزة في الحياة الدنيا والتي عليها تقام الحياة في الدنيا وبها تضمن السعادة في الآخرة هذه الأسس هي:

1 ـ إقامة الصلاة:

إن إقامة الصلاة كاملة في أوقاتها ووفقاً لشروطها مفروضة على المسلمين ويجب أن تؤدي مباشرة دون وساطة وهي من أولى أعمالهم، لأنها

---

(1) سورة النحل، الآية: 18.

(2) سورة الحج، الآية: 41.

(3) سورة النحل، الآية: 30.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تحقق الصلة بين الله وعبده، فتطهر النفوس وتزكي الأعمال وتقوم السلوك، وهي تدعو إلى الامتثال إلى أوامر الله، والانتهاء عن نواهيه ﴿**إن الصلاة تنهي عن الفحشاء والمنكر**﴾ فهي عبادة يومية في حقيقتها وخلوة مع الله ومناجاته، يتوجه الإنسان فيها إلى الله بتلاوة بعض القرآن، والدعاء مع القيام وركوعاً وسجوداً وقعوداً.

2 ـ إيتاء الزكاة:

الزكاة عبادة يقصد بها تطهير المال لتحقيق العدالة الاجتماعية، وهي تغني عن المبادىء والحلول التلفيقية، فهي توجب مقداراً معيناً على مال الغني وهي حق معلوم للفقير. وبهذا يعم الخير كافة أفراد المجتمع وتقوم دعائم العدل والإصلاح والرحمة، ويتحقق التوادد والتعاطف بين أفراد المجتمع وبهذا تدخل السعادة قلوب المحرومين، كما وينعم الأغنياء بنعم الله ويسعدون في الدار الآخرة لما أحسنوا في الدنيا في دفع الزكاة عن أموالهم.

3 ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر طريق صلاح الأمة وأساس كيان الدولة والمجتمع، به يرتد الظالم عن ظلمه ويكبح جماح العاصي، ويرشد الحكام إلى الطريق المستقيم.

4 ـ الصوم:

المراد بالصوم صون الجسد والنفس عن الشهوات المشروعة من طعام وشراب واتصال جنسي خلال النهار من الفجر إلى غروب الشمس ولمدة شهر كامل، فهو التزام بهذا الامتناع المؤقت بغية تربية النفس وترويضها وضبط نزواتها المشروعة المحللة في الأحوال العادية، هذا الشهر بالسلوك المذكور عبادة وهو شهر مبارك نزل فيه القرآن. هذه العبادة تفرض على الذين يطيقون الصيام أما من كان مريضاً أو مسافراً ويجد في سفره مشقة فله أن يفطر ويعوض عن الأيام التي أفطر فيها فى أيام أخر. وأحكام الصيام وردت في كتب الفقه ولا داع لشرحها هنا إنما جل ما نقصده من إيراد هذا النوع من العبادة إن فيها تطهيراً للنفس وتقشفاً، وذلك للإحساس بالآخر وما

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يقاسيه من جوع في حالة حاجته فيندفع الصائم نحو التعاطف والتوادد وإجراء الصدقات ومؤازرة الفقير المحتاج.

5 ـ الحج:

الحج عبادة خاصة سنوية مفروضة على جميع المسلمين ممن يستطيعون إليه سبيلاً مرة في العمر يقصد بها عبادة الله وحده، ولها إجراءات شرحتها كتب الفقه وأبرز ما في الحج:

1 ـ إعلان حال التقشف بالإحرام أي الامتناع عن الحلاقة والتطيب والزينة المباحة، وذلك بالتستر بقماش غير مخيط يستر به جسمه.

2 ـ الطواف حول البيت، وهذا الطواف يقصد به تعظيم الله والتذكر بأن البيت هو أول بيت بني لعبادة الله، والحجر الأسود هو الحجر الباقي من هذا البناء القديم.

3 ـ السعي بين صخرتي الصفا والمروة.

4 ـ الوقوف في عرفة للابتهال والدعاء إلى الله، إلى غير ذلك من الأعمال من مبيت بمنى ورمي الحجارة الصغيرة وهو ما يسمى بالرجم. كل هذه الأعمال إنما هي تعبدية تفيد معنى الخضوع لأوامر الله وترمز إلى التآزر والتآخي، وتعاضد المسلمين ووحدتهم في كل ما يتعلق بالمسلمين والدفاع عنهم كما أن الحج مؤتمر إسلامي لعبادة الله في وقت محدد من كل سنة. ففي الحج إذن معنى التجرد عن الذات لعبادة الله وتحمل المشاق، وفيه تتحقق معنى إنسانية المسلمين على أختلاف أجناسهم وألوانهم وطبقاتهم.

قال تعالى:

﴿لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ﴾[1].

(1) سورة الحج، الآية: 28.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

6 ـ تلاوة القرآن والدعاء:

إن مما يدخل في شمول العبادة الدعاء وذكر الله وقراءة القرآن فهو أفضل أنواع الذكر فيتذكر الإنسان بتلاوته عظمة الله وقوته وقدرته وحكمته ورحمته وفضله وإحسانه وعذابه ونعيمه يوم الآخر والقرآن يتضمن كثيراً من الأدعية تفيد الثناء لله وتسبيحه وتنزيهه قال تعالى:

﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْءَانِ﴾[1].

وقال تعالى في مخاطبة الله ومناداته وهو أصل مفهوم الدعاء:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[2].

هذه العبادة هي في الحقيقة أسس لا بد للمسلمين من القيام بها وهي عنوان إيمانهم وطريقهم إلى السعادة وهم إذ أقاموا أسس الإسلام بإيمانهم وعملهم فبقد أحسنوا في هذه الدنيا، وهم إن سعدوا فيها بما قاموا به، بيد أن نعيم الدار الآخرة خير وأبقى، فهم يثابون على عملهم في الدنيا والآخرة والنعم دار المتقين.

على أن دار المتقين وهي الدار الآخرة وإن لم يكن لدينا تصور عنها، إذ لم تجرب كنهها، ولم نعلم من أمرها شيئاً باعتبارها من عالم الغيب بيد أن الله سبحانه وتعالى قد وصفها لنا ووصف السعداء فيها وصفاً لا يملك الإنسان تصوره لأن قوانا وحواسنا ومداركنا مهيأة لمعرفة ما يدور في الدنيا فقط، لهذا فلا يمكن تصور حقيقة السعادة في الآخرة لهذا استعمل الله مشاهد حسية من الدنيا لفهمها فوصف لنا السعداء الذي خصهم بالسعادة، وهم المؤمنون بآيات الله والعاملون بها والذين إذا ذكر الله سجدوا لله وحمدوا وأثنوا عليه وراحوا يهرعون إلى الصلاة آناء الليل وأطراف النهار، يدعون ربهم خوفاً من عقابه وطمعاً في ثوابه، وهم ينفقون مما رزقهم الله

---

(1) سورة المزمل، الآية: 20.

(2) سورة البقرة، الآية: 186.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

في سبيل الله وقد قال تعالى عنهم:

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1].

هؤلاء الذين وصفهم الله، قد طهروا نفوسهم من الرياء والنفاق فعملوا سراً أسروه إلى الله ولم يعلم به الناس، فأسر الله لهم يوم القيامة، فجزاؤهم من جنس أعمالهم قرة أعين ولكننا لا نستطيع تصور عظمة هذا الجزاء وما أخفى الله لهم، ووعدهم به في الجنات من النعيم المقيم والثواب العظيم والفضل العميم. هؤلاء يتقبل الله منهم أعمالهم الصالحة، ويتجاوز عن سيئاتهم، وعد الله الصدق الذي كانوا يوعدون به. وقد روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال:

قال الله تعالى:

﴿أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر﴾.

تلك هي عدالة الله في المعاملة تبعاً للأعمال:

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[2].

وقال تعالى:

﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ﴾[3].

---

(1) سورة السجدة، الآية: 15 ـ 17.

(2) سورة الزلزلة، الآية: 7 ـ 8.

(3) سورة الطلاق، الآية: 11.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فالجزاء إذن من جنس العمل ولا يسوغ عدلاً وعقلاً أن يسوى المؤمن العامل مع الكافر الفاسق.

قال تعالى:

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[1].

فالله إذ خلق السمٰوات والأرض بالحق إنما هو مبدأ مقرر فيه بأن الله سبحانه وتعالى يحق الحق، ويجزي كل نفس بما كسبت، وما ربك بظلام للعبيد، فالغاية إظهار العدل والرحمة، وهذه العدالة إذ هي مقررة إنما تتم يوم البعث وهو يوم الحق، الذي يفصل الله فيه بين المحق والمبطل، إذ لا يمكن أن تتم المساواة بين من اقترفوا الذنوب واكتسبوا الآثام، مع من آمنوا وعملوا الصالحات وهذا تهديد وتقرير بالعدالة، فكل من خرج عن الدين الحق ولم يمتثل ما أمر الله به، فليعلم أن جزاءه لا يمكن أن يكون كجزاء من عمل صالحاً وسار على الصراط المستقيم.

وقال تعالى:

﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾[2].

وقال تعالى:

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾[3].

فنعم الإيمان التي وعد الله بها المؤمنين لا يمكننا أن نتصور لذتها وحقيقتها في الدنيا إنما تتحقق معرفتنا لها يوم القيامة، لأن الجزاء يتم في الدار الآخرة، ولما كان إدراك الشيء فرع عن تصوره، وبما أنه ليس لدينا

---

(1) سورة الجاثية، الآية: 21 .

(2) سورة ص، الآية: 28.

(3) سورة السجدة الآية: 18.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أي تصور عنه في حياتنا الدنيا وبالتالي فلا يمكننا إدراكه، بمعنى أن اللذه الآخروية عن الأعمال الصالحة لا يمكن إدراك كنهها، هذا وإذا كانت قوى النفس من سمع وبصر وحسّ لكل منها لذة نستمتع بها تبعاً لقيامها بوظيفتها في حدود ما هي مهيأة له، وبالتالي فإن اللذائذ تتم وفقاً لما نحس به ونستحسنه، فلذة العين في النظر إلى ما نستحسنه في رؤياها، ولذة السمع في الاستمتاع إلى ما يستطيبه، ولذة الحس في لمس المحسوسات بما يستلذه، ولذة الوهم في تصور ما يؤمله، ولذة الخيال في تخيل ما يستحسن تصوره، ولذة الفكر في أمر مجهول عنده يتعرفه[1]. كل هذه الحواس الدنيوية يتعرف بها في حال سلامتها على ما هو موجود في الدنيا.

أما اللذات الأخروية فهي لذات لا تدرك إلا بأعمال العقل تبعاً للتصديق بما أخبرنا الله عنه، ولما أراد الله أن يعرفنا بلذات الغيبيات معرفة ذاتية شبّهها ببعض ما تدركه حواسنا في الدنيا فقال تعالى في وصف الجنة:

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾[2].

هذا الوصف إنما كان للبيان والتوضيح بالتقريب إلى أذهان المؤمنين بما سيتمتعون به من لذة ونعيم فشبّه لذائذ الطعام والشراب في الجنة من حيث الجنس باللذائذ التي يستسيغها الإنسان في الطعام الطيب، كل هذا من باب التمثيل والتصوير والتشبيه تقريباً للأذهان، إذ الإنسان في الدنيا لا يمكنه تصور سعادة الآخرة بمقومات ووسائل حواسه، إلا إذا فارقت الروح الجسد وتخلت عن الهيكل الجسماني، وعندما يبعث يوم الآخرة فيطلع على الحقيقة التي وعد الله بها قال تعالى:

﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾[3].

---

(1) الأصفهاني، المرجع السابق، ص 60 بتصرف.

(2) سورة محمد، الآية: 15.

(3) سورة الأنعام، الآية: 158.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المراد بآيات ربك هنا بعض الآيات الدالة على قرب قيام الساعة فإذا آمن بعض الناس ولم يكونوا مؤمنين من قبل فلا ينفع إيمانهم هذا، لأن الإيمان تكليف وعمل باختيار، أو إذا آمنوا من قبل ولن يعملوا عملاً صالحاً، فإن هذا الإيمان وحده غير كافٍ أيضاً لأن الله سبحانه وتعالى دائماً يقرن الإيمان بالعمل الصالح، أي لا بد من العمل الصالح إلى جانب الإيمان.

هذا وإذا كانت لذائذ السعادة يوم الآخرة لا يمكن تصورها بحواسنا الدنيوية، فإن الله سبحانه وتعالى قد خصّ بعض خواصه ممن فارقوا الأمراض النفسية وأذهب عنهم الرجس بأن أطلعهم من وراء ستر رقيق على بعض ما أعد لهم قال تعالى:

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[1].

وقال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه: «لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً».

(1) سورة الأحزاب، الآية: 33.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثالث:

الدار الآخرة هي القرار:

إن الإنسان في دار الدنيا غير مستقر إنما متاعه فيها إلى حين وإن دار الآخرة هي دار القرار بمعنى أن الإنسان لا بد راحل إليها وهي الدار التي يستقر فيها ويطمئن بلقاء ربه راضياً مرضياً. قال تعالى مشيراً إلى ذلك:

﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ * ٱرْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَٱدْخُلِي فِي عِبَٰدِي * وَٱدْخُلِي جَنَّتِي﴾[2].

هذا البيان والتوضيح الصادر عن الله سبحانه وتعالى يؤكد أن النهاية والغاية هي اليوم الآخر وإذا كان الأمر كذلك فلا بد إذن من أن يظهر الإنسان تعسه في هذه الدنيا ويصفي روحه وينقيها ويسمو بها عن الماديات طالما أنه ملاق ربه، وتبعاً لذلك عليه أن يتزود في دنياه لآخرته عملاً يرضي الله سبحانه وتعالى لتكون نفسه مطمئنة وراضية بما زودت به من أعمال مرضية عند الله، كالأعمال الروحية والمعارف والحكم والعبادات والأخلاق الحميدة وتقوى الله، جميع هذه الأمور تعتبر زاداً وثمرة في هذه الحياة يكتسبها الإنسان لليوم الآخر. ما عدا ذلك من أعمال الدنيا فهي أعمال مادية مؤقتة تنتهي بموت الإنسان وتفارقه كالمال والأثاث وملذات الدنيا أو قضاء حاجاته الدنيوية فهي جميعها لذات عاجلة، ولا ينتفع بها إلاّ بقدر ما يستعين

---

(1) سورة البقرة، الآية: 36.

(2) سورة الفجر، الآية: 27 ـ 30.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

به الإنسان للوصول إلى تحقيق الزاد الأخروى. وفي غير ذلك لا قيمة لها وتدخل في شمول متاع الدنيا.

قال تعالى:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ الْغُرُورِ﴾[2].

فعلى الإنسان إذا علم أن الغاية هي الآخرة أن لا يغترّ في هذه الدنيا فلا يلتفت إليها إلا بمقدار ما تحقق منفعة للآخرة مراعياً في تصرفاته وأعماله حكم الشرع ومحققاً قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾[3].

وما دام الأمر كذلك وأن الحياة الدنيا ليست بدار قرار فإن حبها رأس كل خطيئة لأن حب الدنيا يشغل الإنسان عن الآخرة قال رسول الله ﷺ:

«من سكن قلبه حب الدنيا بلي بثلاث: شغل لا يبلغ مداه، وفقر لا يبلغ غناه، وأمل لا يبلغ منتهاه».

وقال تعالى:

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[4].

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 14.

(2) سورة الحديد، الآية: 20.

(3) سورة فاطر، الآية: 5.

(4) سورة القصص، الآية: 60.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقال تعالى:

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾[2].

من هذه الآية يتضح لنا أن الإنسان أحد رجلين: رجل زاهد في الدنيا يبغي وجه الآخرة في كل عمل يعمله. فنيته تسبقه فيثاب عليها وعلى علمه طالما أنه يريد الآخرة، وقلبه مليء بالإيمان، فهو يراقب الله دائماً في خوف وحذر منه راجياً ثوابه وخاشياً عقابه، ولا شك أن هذا يضاعف الله له ثواب أعماله. ورجل آخر مفتون في الدنيا يبغي متاعها وعرضها الزائل، وقلبه مليء بالشك والنفاق حتى لو أغضب الله بذلك، إذ همه الدنيا وهذا النوع ليس له نصيب من السعادة في الآخرة قال تعالى في وصف هذين النوعين من الناس:

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا * كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾[3].

وعلى هذا نجد أن الإنسان في الدنيا مؤقت وأنه لا بد راحل إلى دار الأخرة وهي الدار التي يستقر فيها ويطمئن لها تبعاً لأعماله المرضية قال تعالى:

---

(1) سورة الحديد، الآية: 20.

(2) سورة الشورى، الآية: 20.

(3) سورة الإسراء، الآية: 18 ـ 20.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾[1].

فلا يسوغ إذن لمن كان وضعه مؤقتاً في الدنيا أن يفتتن بها بكل جوارحه، وأن يتجه إليها بحبه ويجعلها أكبر همه، فإذا فعل كان ممن يحبون العاجلة ويذرون الآخرة وهؤلاء هم الماديون الذين يحبون المال حباً ويأكلون التراث أكلاً لما يتمنون ما يتمنون، ولكنهم لا يعطون إلا بعض أمانيهم ومنهم من لا يعطون شيئاً في أمانيهم بل ينالهم فقر الدنيا وغضب الله وجزاء السعير.

هذا وإذا كانت الدنيا على الأساس الموصوف، وهي كما رأينا وسمعنا من كتاب الله أنها دار فانية وأنها لا قيمة لها إلا إذا كانت طريقاً للتزود بالتقوى لتحقيق السعادة في الدار الآخرة. فلا بد إذن للفعل من أن يهتدي بالشرع، والاهتداء بالشرع لا يتحصل إلاّ بالعبادة والتقوى وهو الغرض والغاية التي من أجلها خلق الإنسان لهذا فقد أمر بها من قبل الله سبحانه وتعالى إذ قال:

﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾[2].

هذا الأمر بالعبادة هو ما تقتضيه الدعوة إلى الإسلام دين الحق، الذي دعا إليه سيد المرسلين محمد ﷺ مبشراً ونذيراً بما أنزل عليه من كتاب مبين، هدى ورحمة لمن اتبع رضوانه، كما يهدي إلى الصراط المستقيم، وهو السلوك المطلوب من المسلم، سلوك المحبة والسلام سلوك الإيمان الذي تغذيه وتعزز العبادة والتقوى باعتبارها هي الوسيلة إلى ذلك.

قال تعالى:

﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ * يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ

(1) سورة البقرة، الآية: 36.

(2) سورة البينة، الآية: 5.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

﴿إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1].

هذا وإذا كانت العبادة والتقوى هي الغاية والهدف في هذه الدنيا وهي الوسيلة لله في اليوم الآخر والتي بها يرجى رضاء الله ورحمته، فما على الإنسان إذن إلاّ أن يعبد الله ويقيم شعائر الدين قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾[2].

فالذين يبتغون الوسيلة عند الله هم المرتضون الذين يخافون عذابه وهم أقرب إلى الله بعبادتهم التي هي القربى والطاعة فهم عباده المخلصون قال تعالى:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾[3].

فمن لم يبتغ هذه الوسيلة ويتخلى عن عبادة الله، أو يعرض عن ذكره فهو في حكم المعدوم وقد قال تعالى في شأن من كانوا من هذا النوع والذين عطلوا حواسهم ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[4]، ذلك أن الحواس والأعضاء إذا لم ينتفع بها الإنسان فوجودها كعدمها طالما أن طاقاتها وقدراتها غير مستعملة كذلك الشأن بالنسبة للصلاة والعبادة باعتبارها هي التي تحقق إنسانية الإنسان، فمن يحافظ عليها يستكمل إنسانيته ومن يمتنع عنها أو يتركها فقد انسلخ عن إنسانيته وبهذا يضحى أقرب إلى الحيوان منه إلى الإنسان أو دون الحيوان. قال تعالى في شأن هؤلاء:

﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[5].

فالإنسان إن لم يكن مقيماً للصلاة عارفاً بالعبادة وأحكامها لا يكون

---

(1) سورة المائدة، الآية: 15 ـ 16.

(2) سورة المائدة، الآية: 35.

(3) سورة الإسراء، الآية: 57.

(4) سورة البقرة، الآية: 171.

(5) سورة الفرقان، الآية: 44.